أحمد سويلم

# إطلالة على عالم البراءة

## دراسات فى ثقافة الطفل العربى

الطبعة الأولى

٢٠١٤م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

# اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

**طه حسين**

دار المعارف

أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

(اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها.. والصبى أمانة والديه.. وعلى الوالد صيانة ولده بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق.. ويحفظه من قرناء السوء.. ولا يعوده التفاخم)

**الإمام الغزالي**

**(إحياء علوم الدين)**

# المقدمة

يضم هـذا الكتاب عددا من الدراسـات والأبحاث التى تتناول ثقافة الطفـل فى مجالاتها المتنوعة.. وقد كُتبـت فى أوقات متفاوتة واشـتركتُ بها فى نـدوات أو مؤتمرات مختلفة.. ونشـر بعضها فى بعض المجلات.

ويلاحظ القـارئ العزيز أن هذه الدراسـات والأبحاث قد ابتعدت عن الأسـلوب الأكاديمى الممـل.. فانطلقت فى فضـاء البحث تاريخيا وجغرافيا واجتماعيا ونفسـيا وفنيا.. وحاولَت أن تقدم وجبة شـهية حول هذا العالم الجميل.. عالم الطفولة.

وأعـترف أننى اهتممت بهـذا العالم منذ الثمانينيـات من القرن الماضى وأصدرت ثلاث دراسات فى كتب هى:

- أطفالنـا فـى عيـون الشـعراء (١٩٨٥م و٢٠٠٢م) وهى محاولة تناولت فيها بإيجاز ما أبدعه الشعراء للأطفال منذ الحضارات القديمة حتى العصر الحديث تاريخيا وفنيا.

- التربيـة الثقافية للطفل العربـى (١٩٩١م) وقد حاولت فى هذا الكتاب تقديم مفهوم التربية فى الحضارات المختلفة وكذا مصادر ثقافة الطفل العربى المتنوعة.

– الفكر الإسلامى وثقافة الطفل العربى.. وهى دراسة مستفيضة تؤصل لثقافة الطفل العربى فى الفكر الإسلامى من خلال مناهجه ورواده.

ثم قدمت ديوان محمد الهراوى محققا (١٩٨٦م و٢٠٠٨م) حيث جمعت فيه دواوينه المتناثرة التى تربو على خمسة وعشرين ديوانا وقمت بدراستها وتحقيقها تحقيقا علميا.

وقدمت ديوان شوقى للناشئة (٢٠٠٨م و٢٠١٠م)..

هذا بالإضافة إلى عدد من الدواوين والمسرحيات الشعرية الموجهة للأطفال فى مراحل أعمارهم المختلفة.

وقد حفزنى هذا العالم الجميل على الإبحار فيه بكل ما أملك من مجاديف.. وهأنذا أحاول بهذا الكتاب أن أؤصل لبعض المعايير والرؤى التى تضع ثقافة الطفل فى دائرة اهتمام الجميع.. دارسين ومبدعين..

إننى على يقين أن قارئى العزيز يشاركنى حينما أؤكد أن الثقافة تبدأ بالطفل.. ومن ثم فإن مراحل العمر المبكرة تمثل الإرهاصات الأولى لبناء الشخصية وبقدر ما نقدم لهذه المرحلة من الاهتمام.. بقدر ما ينشأ الطفل مشبعا بالقيم الثقافية التى تبقى وتنمو معه فى كل مراحل عمره.

وجوانب هذا الاهتمام لا تقف عند تصور معين لكنها تشمل عالم الطفل وجدانيا وعقليا وتنمويا.. ونؤكد أن هذا الكائن الذى نحيطه

بالرعايــة هو الذى ســوف يملأ ســاحة المجتمع فــى القريب العاجل ليمتلك الغد ويرسم المستقبل.

أتمنى أن يســتمتع قارئى العزيز بما أودعه هنا من رؤى وإضاءات حول هذا العالم الباهر.. عالم البراءة المذهل.

أحمد سويلم
سبتمبر ٢٠١٣م

# هل كان للأطفال أدبهم الخاص فى التراث العربى؟

سأل معاوية بن أبى سفيان.. الأحنف بن قيس: ماذا تقول فى الولد يا أبا بحر.. فقال: يا أمير المؤمنين هم عماد ظهورنا.. وثمر قلوبنا.. وقرة أعيننا.. وبهم نصول على أعدائنا.. وهم الخلف منا لمن بعدنا.. فكن لهم أرضا ذليلة.. وسماء ظليلة.. إن سألوك فأعطهم.. وإن استعتبوك فأعتبهم.. لا تمنعهم رفدك فيملوا قربك.. ويكرهوا حياتك ويستبطئوا وفاتك.

فقال معاوية: لله درك يا أبا بحر.. هم كما وصفت.

لهذا كان الاهتمام بالأطفال ورعايتهم فى كل زمان ومكان.. وتجىء الثقافة فى مقدمة وسائل هذا الاهتمام باعتبارها تشكل العقل والوجدان معا.

ويقرر كثير من علماء الجمال وفلاسفة الإبداع أن الطفل يولد مزودا بحاسة سادسة يدرك بها ما فى الأعمال الفنية من سحر وجمال.. ويستجيب لها.. ويتوقف نمو هذه الحاسة على مدى رعايتها وإرهافها للتذوق.. وقد تنمو وتتطور فتكون حاسة مبدعة.

وإدراك الطفل للفنون أمر أخذ جهدا كبيرا فى مجال التجربة.. لكن الأمر الذى يتفق عليه المهتمون بثقافة الطفل هو أن النغم والموسيقى والكلام يسبقان إدراك الطفل لمعانى هذا الكلام وألفاظه المفردة.. فأول

صوت يتعرف عليه الطفل وينتبه إليه صوت الأم.. خاصة حينما تندفع إليـه بصوتها (المنغوم) لكى يكف عن بكائه.. بما يطلق عليه (المناغاة) ثـم يبدأ الطفل فى تمييز الأصوات والكلمات.. والاقتراب أكثر من ألوان الأدب المختلفة.

وقـد أدرك القدمـاء تأثـير الأدب – وخاصة الشـعر – فى وجدان الطفل.. لأنه يكاد يترجم حركات الطفل التلقائية ولغته الأولى وأجهزة وعيه وشعوره الداخلية.

أدرك ذلك شعراء الحضارات القديمة وأدباؤها.. فوضعوا الأدب بين مناهج الدراسـة وكتبوا الشـعر التعليمى أو التهذيبى كما كتبوا الشعر الخالص الذى يتضمن أغراضا مختلفة.

ونظر القدماء إلى الطفل نظرة متميزة.. فالطفل لديهم (رجل صغير) أو هو صورة مصغرة من الكبير الناضج.. لهذا حشدوا له فى سن التعليم والاسـتيعاب كل ما يتصل بالعلـم والأدب والمعرفة دون خوف عليه أو خشية من استجابته.

وهـذه النظرة أيضا.. وجدناها لدى العـرب بتقدير أكثر.. إلا أنها اختلفت أو (انعكسـت) فى العصور الحديثـة فأصبحنا ننظر إلى الطفل علـى أنه (طفل صغـير) علينا أن ندلـله.. وأن نتلمس له أبسـط الطرق والوسائل حتى نقتنصه ونجذبه إلى ما نريد أن نلقنه.

وفرضت كل من هاتين النظرتين طبيعة الإبداع الأدبى – الذى يقدم للصغير – سواء فى دور العلم أو فى خارجها.

ومـا يهمنا هنا أن نجيب على تسـاؤل مهم هو: هـل كان للأطفال أدبهـم الخاص فـى التراث العربـى القديم.. وكيف نظـر القدماء فى حضارة العرب إلى الطفل؟

ولأن الشـعر كان - ولا يزال - ديوان العرب.. فسوف نجد أنفسنا منحازيـن إلى هذا اللون من الإبداع باعتبـاره أظهر من النثر فى مجال رصد الثقافة العربية.

## الطفل العربى والشعر:

لا تختلـف المعاجم اللغوية كثيرا حول مفهوم الطفل - وإن تعددت مسـمياته - وبـدون الدخـول إلى التفصيلات.. تتفق هذه التفسـيرات اللغويـة مع آراء علم النفس على أن سـن الطفولة تنتهى فى السادسـة عشرة أو الثامنة عشرة.

ويؤكـد التاريخ العربى أن الطفل كان عضـوا منتجا فى المجتمع.. فقـد دخل الأطفال قضايا الكبار بل كانوا أحيانا طرفا فيها.. وفخر بهم آباؤهم.. وأجلسـوهم على مقاعد السـلطة وهم صغار.. يؤكد ذلك الشعر العربى فى أكثر من موقف.. فهذا عمرو بن كلثوم يقول:

إذا بلـغ الفطـام لنـا رضيـع  تخر لـه الجبابـر ساجدينـا

ويقول آخر:

وليـس يهلك منـا سيـد أبـدا  إلا افتلينا غلامـا سيـدا فينـا

لم يكن الطفل إذن كما مهملا ينتظر الاعتراف به حينما يبلغ سـنا معينـة.. لكنه منذ يفطم عن ثدى أمه (فصاله فى عامين) يصبح شـيئا

مذكورا.. بـل يمكن حينما يكون غلاما يصبح سـيدا لقبيلته.. وحينما نقرأ لحاتم أشعاره يستوقفنا هذا النموذج الفريد وهو يأمر غلامه.

أوقـد فـإن الليـل ليـل قـر والريح يـا غـلام ريـح صـر
عـلّ يـرى نـارك مـن يمـر إن جلبت ضيفـا فـأنـت حـر

ولابد أن يكون مثل هذا الحوار بين طرفين يفهمان جوهر المعنى .. ولولا هذا ما وصل المعنى الذى يقصده حاتم إلى غلامه العبد .. ويسـعى الغلام إلى عمله طمعا فى الحرية..

وكان العـرب أول مـا يفعلـون مع أولادهـم حينما يدركـون.. أن (يسـمعوهم) الوصايـا والمواعظ التى تضىء لهم طريـق حياتهم.. ومنذ كتب لقمان وصاياه.. والشـعوب جميعـا لها آثارها من الوصايا بل أكثر العرب من ذلك حرصا على تربية النشء تربية صالحة.

لقد وجدنا أمثلة كثيرة من الوصايا النثرية والشعرية التى نلمس فيها الحكمة والنصح والتوجيه.. بعضها مباشرة.. وبعضها قيل بأسلوب فنى.

كمـا وجد لـدى العرب فن ترقيـص الأطفال.. وهو فـن وجد لدى الشـعوب بـأسـرها.. وينتمى لدى العرب إلى (الشعر الشعبى). ويطلق عليه (أغانى المهد أو أغانى الطفولة).

ونلاحظ أن هذا اللـون كان يرقص به العربى أبناءه – وبناته – فى سن مبكرة لا يدرك الطفل فيها للغة معنى.. لكنه كان يحس فيها النغم والموسيقى فحسب..

وكان هذا الشعر يكتب بنفس المستوى اللغوى والفنى الذى يكتب به الشعر العربى فى أغراضه المختلفة.. ومن أمثلة ذلك ما جاء على لسان (شيماء) فى بادية بنى سعد وهى ترقص النبى فى طفولته:

يا ربنا أبق لنا محمدا  حتى أراه يافعا وأمردا
ثم أراه سيدا مسودا  وأعطه عزا يدوم أبدا

والشعر العربى حافل بمثل هذه النماذج على ألسنة الآباء والأمهات لأبنائهم الصغار.. لكنها لا تمثل تيارا فى الأدب العربى.. على الرغم من أهميتها فى تربية الصغير.. ربما لأن مؤرخى الأدب قد شغلهم تدوين الشعر العربى (الرصين) عن أن يدونوا هذا اللون من الشعر.

ولو أمعنا النظر فى مثل هذه المقطوعات.. لوجدناها - مع سهولة إيقاعها (بحر الرجز) - تلتزم لغة العرب التى كان الشعراء الكبار يكتبون بها أروع قصائدهم.. كما أن التاريخ يؤكد أن كثيرا منها كان يقال ارتجالا دون إعداد سابق.. مما صعب حفظه أو تدوينه فيما بعد.. ولهذا لم تمثل هذه النماذج تيارا خاصا فى الشعر العربى ربما لأن الرواة لم يلتفتوا إليها فأضاعوها.

كما ارتبط اللعب لدى الصغير بالشعر أيضا فى صورة أناشيد مصاحبة لممارسة اللعبة.. ومن تلك النماذج ما قاله امرؤ القيس فى لعبة الزحلوقة (الأرجوحة):

لمن زحلوقة زل  بها العينان تنهل
ينادى الآخر الأل  ألا حلوا.. ألا حلوا

كمـا وجدنا لدى العرب أشـعار (الحداء) التى تنشـد مع رحلات القوافل للرجال والنساء والأطفال.

إلا أن الحقيقة المؤكدة فى تراثنا العربى هى أن الشعر لم يكن يفرق بـين المتلقين.. فما كان يكتـب للكبار لم يكن بعيدا عن أذهان الصغار.. فترقيص الأطفال أو شـعر اللعب مثلا.. بهذا المستوى اللغوى - والفنى كذلـك - قـد يمثل زهوا لدى الكبار أكثر مما يمثـل لدى الصغار.. فقد كانوا ينشـئونه تلقائيا كى يصمت الصغير عـن بكائه.. أو كى يفخروا به.. أو يعبروا عن حبهم له.. لكن هذا الصغير أمام هذه الترقيصات لم يكـن من الإدراك بحيث يرددها أو حتى يفهم معناها.. لكن كل ما كان يعنيه هو أن يستجيب وجدانيا لصوت أبيه أو أمه.

ومن ثم كان العربى القديم يربى أبناءه منذ نعومة أظفارهم وإدراكهم على لغته هو وتجاربه هو.

ويذكـر تاريخ الشـعر العربى أكثر من حادثـة أو موقف نطق فيه الصغار بالشـعر وكأنهـم الكبار ينشـدون.. مما يدل علـى أن الفروق اللغوية التى نحسها اليوم لم تكن موجودة فى تلك العصور بهذه الحدة التى نشهدها ونعانيها.

ويذكر (نيكلسـون) فى تاريخ الأدب العربى أن لغة الشعر العربى لم تختلف عن لغة الحديث العامة ويؤكد أنها نفسها كانت لغة الشعراء الجائلين.. والرعـاة.. والصعاليك.. والبدو الأميين.. وكان يتحدث بها العرب فى أرجاء شبه الجزيرة العربية عرضا وطولا..

فاللغة العربية – واحدة – يفهمها ويدركها ويستمتع بها كل من الصغار والكبار.. لا يجد الصغير فيها صعوبة فهم.. ولم يتحرز الكبار فى إسماعها وتلقينها لأولادهم وهم فى دور الإدراك.. وهذا يفسر لنا انعدام ما يمكن أن يسمى – اصطلاحا عصريا – بشعر الأطفال المدركين للقراءة والكتابة.

ومما يؤكد ذلك أن التاريخ العربى يحفل بكثير ممن نطقوا الشعر فى مرحلة مبكرة.. واخترقوا بهذا ما يتوهم من حاجز العجز الذى قد تفرضه عليهم أعمارهم. ويحكى صاحب الأغانى فى هذا الصدد أن كعب ابن زهير نطق الشعر وهو صغير. بل أجاز قصيدة لأبيه زهير بن أبى سلمى.. حتى سمح له أبوه بقول الشعر.

كما أن لبيد بن ربيعة قد هجا أخواله – وهو غلام ما زال – بأول ما قال من الشعر فى قصيدته:

أكل يوم همتى مفزعة  يارب هيجا هى خير من دعه
نحن بنى أم البنين الأربعة  سيوف حز وجفان مترعة

وأيضا روى عن طرفة بن العبد أنه خرج مع عمه فى سفر وهو ابن سبع سنين فنزلوا على ماء فذهب طرفة بفخ له إلى مكان اسمه (معمر).. فنصبه للقنابر.. وبقى عامة يومه لم يصد شيئا.. ثم حمل فخه وعاد إلى عمه.. فحملوا.. ورحلوا من ذلك المكان.. فرأى القبرات يلقطن ما نثر لهن من الحب فقال:

يا لك من قبرة بمعمر  خلا لك الجو فبيضى واصفرى

قد رفع الفخ فماذا تحذرى ونقرى ما شئت أن تنقرى
قد ذهب الصياد عنك فابشرى لا بد يوما أن تصادى فاصبرى

لم يكن يجوز – والأمر كذلك – أن يلقن هؤلاء الصغار شعرا خاصا بهم أقل مما يقدم للكبار، وهم ينطقون بما ينطق به الكبار.

ولم تكن هذه النماذج وحدها من الشعراء الصبيان فى تاريخ الشعر العربى.. فقد وجدنا أبا نواس وأبا تمام وغيرهما فى عصور متأخرة.

## أدبان لا أدب واحد:

لم يستمر الأمر هكذا على حاله فى الثقافة العربية.. فمع انشغال الدولة الإسلامية بصراعاتها مع أعدائها. وضياع كثير من ملامح الثقافة العربية فى مواجهتها بالثقافات الوافدة تراخت أيدى القائمين على اللغة.. فتعددت مستوياتها.. وحدث تفريق بين لغة الدواوين.. ولغة الأدب.. وتخلفت لغة الحوار.. ودخلت مفردات ليست عربية إلى اللغة.. ونتج عن ذلك تخلف فى وسائل التعليم ومناهجه.. وتعددت اللهجات.. فانعكس ذلك كله على الأدب والشعر.. وانسحبت فكرة التخصص على الأدب.. فظهر أدب للأطفال.. وأدب للكبار.. وربما أدب للشباب.. وأدب للمرأة..

ومن ثم يمكن اعتبار أدب الأطفال – علميا وتاريخيا – فنا معاصرا.. بدأ فى أوربا على أيدى لافونتين (منتصف القرن السابع عشر) بعد أن تغيرت النظرة إلى الطفل.. فأصبح هذا الكائن مدللا.. نتلمس له أيسر الطرق فى الثقافة.

أمـا فى العـالم العربـى المعاصر.. فقد بـدأه محمـد عثمان جلال (منتصف القرن التاسـع عشـر) وأحمد شـوقى ومحمد الهراوى وكامل كيلانى وآخرون.

ولهـذا ارتبط أدب الأطفال – الذى يكتـب خصيصا للطفل – بتعدد مسـتويات اللغة.. وتغير النظرة إلى الوضع الاجتماعى للصغير.. وتغير أسـاليب ومناهج التعليـم.. الأمور التـى لم نجدها فى نظـم التربية والتعليـم عنـد العـرب والتى كتب فيهـا ابن خلدون والقابسـى وابن مسكويه والزرنوجى ومحمد بن سحنون وغيرهم.

**وأخيرا..** فإن الأدب العربى قد ترجم نبوغ الطفل العربى منذ صغره.. فقدموا له الأدب والفكر على أسـس من فهم شـخصيته.. واحترامها.. وتقديرها.. ولهذا فإن المسـتوى الإدراكى للطفـل العربى قديما لم يكن يقبـل لغة ولا مضمونـا ولا فكرا مختلفـا عما يقدمه الكبـير.. وبهذا لم نجد ذلـك التيار الذى يمكن أن نطلق عليـه أدب الطفولة.. كما هى الحال فى العصر الحديث.

* * *

# الثقافة والطفل

**دعونا** نتفق أولا على بعض الحقائق التى لا تحتاج إلى جدال:

أولهـا: أن للطفـل حاجاته المختلفة والتى تتنوع وتتشـكل فى مراحل حياته المختلفة.

والحاجة هى أكثر المفاهيم غموضا والتباسا.

فقد تـرد أحيانا مختلطة مع الخدمة أو المنفعة أو الرغبة لكنها فى مجال الطفولة تأخذ شـكل الضرورة.. لأنها تسـهم فى إشـباع وتنمية شخصية الطفل.. وتتخذ مجالات مختلفة منها:

( أ ) حاجات تربوية أسرية تتعلق بالتنشئة الاجتماعية.

(ب) حاجات تتعلق بتنمية شخصية الطفل سيكولوجيا.

(جـ) حاجات تخص علاقات الطفل ورعايته اجتماعيا.

( د ) حاجـات تتعلق بمشـكلات ثقافية وإعلاميـة وتدعم مواهب الطفل وطاقاته الإبداعية.

(هـ) حاجات متنوعة أخرى.

وما يعنينا هنا هى الحاجات الثقافية:

والتى تشمل كل ما يتعلق بالتنشئة الثقافية بالمعنى الأنثروبولوجى للثقافـة: أى منظومـة القيم والأفـكار والمفاهيم والمعتقـدات والهوية الثقافية وعلاقتها بالحضارة والدين والواقع المعيش.

وإشـباع هذه الحاجات ليس من قبيل التسـلية أو الأداء الوظيفى.. لكنه يتعلق بأهمية الأسلوب الذى يمكنه القيام بهذا الإشباع.

وفى اعتقادنا أن إشـباع الحاجات الثقافيـة للأطفال يتم عن طريق الأساليب المباشرة وغير المباشرة المقروءة والمسموعة والمرئية والمحكية.. ووسائل الإعلام والاتصالات الألكترونية المعاصرة.

ولا شك أننا حينما نستخدم هذه الأساليب فنحن نضع فى حساباتنا الطفل متلقيا.. والطفل المشروع المنتج للإبداع.

وهنـا يأتى دور الأسـرة والمعلم فى اكتشـاف الموهبـة ورعايتها.. والموهبة لا تأتى من فراغ.. وإنما هى تطفو فوق سطح الوجدان تنتظر من يكتشفها.. لكنها إذا لم تلق الرعاية الكافية تموت.. كما تموت الأحياء المائية حينما تخرج إلى الرمال.

ويجرنـا البحث هنا إلى مفهوم التربيـة الثقافية والتى تعنى إيقاظ الوعى وتفجير الطاقة العقلية والوجدانية تمهيدا لممارسة الحياة بقيمها وسلوكياتها الإيحائية وأنماطها المختلفة.

ولا شك أن التربية الثقافية تأخذ أشكالا عدة:

ـ فهى إنسانية لأنها تتعلق بالجهاز العصبى والطاقات العقلية.

ـ وهى مكتسبة عن طريق الخبرة الشخصية.

ـ وهى أفكار وأعمال تمارس عن طريق علاقة الطفل بالعالم المحيط به سواء أكان عالما ماديا ملموسا.. أم عالما رمزيا غير محسوس.

ـ وهى نسيج متداخل من عناصر وأفكار وتاريخ وقيم مختلفة.

ـ وهى أيضا متنوعة المضمون.

لقد كانت التربية الثقافية فى مصر القديمة تشاطر المناهج التعليمية فى المدارس.. وكانت تعنى خبرة الحياة العلمية اليومية.

ويعبر عن ذلك الحكيم المصرى القديم: عنخ شاشنقى حين يقول: (اعمل على تعليم ولدك أن يكتب وأن يبحث وأن يصيد وأن يستخدم الشعر على مدار العام).

لهذا.. فإن التخطيط للمستقبل الثقافى للطفل يقوم على عدة أسس أهمها:

١ - تحديد أهداف سلوكية يجب عليه اكتسابها.

٢ - تعميق ثقافة الطفل الوطنية والقومية.

٣ - تقديس قيمة العمل.

٤ - ربط الطفل بجغرافيا الوطن وتراثه التاريخى والحضارى.

٥ - إدخال الثقافة إلى مناهج التعليم.

٦ - اهتمام الإعلام بالتربية الثقافية للأطفال.

ولكى نجنى ثمار هذه التربية الثقافية علينا أن نلقى الضوء على مصادر ثقافة الطفل العربى.. إن تاريخنا القديم لم يقدم لنا صراحة هذا التقسيم العصرى بين ما يقدم للكبار وما يقدم للصغار.. اللهم إلا إذا اعتبرنا الأدب التعليمى فى مصر القديمة يخص الصغار لأنه كان يقدم من حكيم إلى ولده.. فهذا الحكيم خيتى بن داووف يقول لابنه:

- يا ولدى عليك أن توجه قلبك إلى الكتب فلا شىء يعلو على الكتب.. ليتنى أستطيع أن أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك..

ثم يبـدأ الحكيم يحفز ولده على الثقافة ويوازن بين أن يكون مثقفا وكاتبا أو صاحب مهنة.. ثم يصل أخيرا إلى بيت القصيد فيقول:

– إنـك لن تجد مهنة من غير رئيـس إلا مهنة الكاتب فهو رئيس نفسه وما من كاتب ينقصه الزاد الوفير لأن الآلهة ترعاه.

فـإذا انتقلنا إلى الحضارة العربيـة فنحن أمام نماذج متناثرة من فن ترقيص الأطفال.. ووصايا الآباء إلى الأبناء.. والموسيقى والغناء.

لكن مع تطور الزمن صارت الساحة تدعونا إلى تقديم مصادر مختلفة متنوعة لصغارنا أهمها:

١ – الموروث الشعبى أو الفلكلور:

ويشـمل ألف ليلـة وليلة.. وكليلـة ودمنة.. وخرافات أيسـوب.. وأمثال لقمان الحكيم.. والسير الشعبية.. والحكايات العربية الشعبية والأغانى والأناشيد وغير ذلك.

٢ – الأساطير القديمة وهى أنواع:

– أسطورة طقوسية ترتبط بالعقائد والعبادات.

– أسطورة تعليلية ويتصل بها السحر وعالم الروح والغيبيات.

– أسـطورة رمزية حيث تخلع صفات الإنسان على الآلهة كأساطير اليونان والهند والصين ومصر القديمة.

– الأسطورة التاريخية التى تمزج الواقع بالخيال وتركز على فكرة الخير والشر.

٣ – قصص الكتب المقدسة:

التوراة والإنجيل والقرآن والسيرة النبوية وسيرة الصحابة.

٤ – التأليف والإبداع الخالص نثرا وشعرا:

وهذه المصادر تحتاج من الكاتب أن يقدمها بوسائط الإبداع المختلفة التى يتقنها ولا ينسى أنه يخاطب مستوى عقليا لم ينضج بعد.. ويتوق إلى المعرفة.. ويذوب فى الدهشة والبراءة.. ويتطلع إلى آفاق رحبة قادمة.. مشبعة بالتفاؤل والخير والجمال.

## وأخيرا..

فإن الثقافة تعد من أهم ركائز التنمية.. لأنها تبدأ بالطفل.. وهو يفتح عينيه منذ رؤيته للحياة على الشوق إلى المعرفة.. فيعرف أمه من صوتها ومن رائحتها.. ويعرف بيته من ألوانه.. ويعرف ألعابه من لمساته لها.. وهكذا.

ولكى تكون هذه التنمية مفيدة ومتجددة.. علينا أن نكف عن السؤال المستهلك: ماذا نريد لأطفالنا.. ليصبح السؤال الجديد الفاعل هو: ماذا يريد منا الأطفال؟

إنهم يريدون منا أن نقدر ذكاءهم ونحن نتعامل معهم.

ويريدون منا أن نعرفهم بالمنطق واللطف هويتهم العربية العريقة.

ويريدون منا أن نبسط لهم ألوان الثقافة المتعددة.

ويريدون منا استطلاع آرائهم فيما نقدم لهم من أعمال.

ويريدون منا تقدير إبداعاتهم ومواهبهم.

ويريدون منا أن نترجم لهم ما يضيف إلى عقولهم.

ويريدون منا أن نرعى أصحاب الظروف الخاصة منهم ونعمل على اندماجهم مع غيرهم من الأطفال.

لهـذا علينا دائما أن نضع هذا (المسـتهلك) الصغير فى حسـاباتنا ونحن نقدم له ما يجعله رجل المستقبل المأمول.

والغريب أننا اعتدنا فى كل أبحاثنا الرجوع إلى علماء الغرب فقط. ولو عدنا إلى علماء العرب والمسلمين لوجدنا لديهم أكثر مما نجد لدى الغرب.

١ – أبو الحسـن القابسى: صاحب رسالة (أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين)

٢ – ابن سحنون: تناول أسلوب التعليم والعلاقة بين المعلم والتلميذ.

٣ – أبو حامد الغزالى: أكد على قيمة العلم والتعليم وأن العلم فرض عين على كل مسـلم.. وكان يقول (التربية تشبه فعل الفلاح الذى يقلع الشوك ويخرج النباتات من بين الزرع ليحسن نباته).

٤ – ابن مسكويه: تحدث عن الفلسفة الخلقية والتربوية ويتجه إلى أن التربية تنزع نزعة واقعية علمية.

٥ – ابـن جماعة: نبـه على ضرورة الاهتمام بالمعلـم لأنه الركيزة الأولى فى العملية التعليمية.

٦ – ابـن خلدون: يرى التعليم ضرورة حياتية.. وأن التفاوت بين البشر قائم على الفروق فى اللغات والمذاهب.

٧ – إخـوان الصفـا: أدركوا التدرج فى تعليم الصغار بالمحسـوس أولا.. ثم الاستماع.. ثم الفهم.. ثم الكتابة.

هـذه نماذج من علمائنا الذين لو درسـنا آراءهم كمـا ندرس علماء الغرب لاكتشفنا سبقهم تاريخيا وعلميا وفلسفيا فى مجال التربية.

# هؤلاء الشعراء كتبوا للأطفال

(١)

يقول الشاعر الإسلامى حطان بن المُعلى مجسدا حبه لأولاده:

أنزلنى الدهر على حكمه ... من شامخ عال إلى خفض
وغالنى الدهر بوفر الغنى ... فليس لى مال سوى عرضى
أبكانى الدهر ويا ربما ... أضحكنى الدهر بما يرضى
لولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع ... فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض
لو مرت الريح على بعضهم ... لامتنعت عينى عن الغمض

ومن المآثر القديمة: قيل لأعرابى: صف ابنك.. قال: ولد الناس أبناء وولدته أبا يُحسن ما أحسن.. ولا أحسن ما يُحسن.

هكذا نظر أجدادنا إلى أبنائهم نظرة تقدير ومحبة.. بل نظرة تجعلهم مشاركين فى صنع الحياة.. يعملون.. ويحاربون.. ويصاحبون القوافل.. وأحيانا يشاركون الكبار فى الرأى والتفكير.

ولن أخوض كثيرا فى تقدير هذه النظرة.. ولكننى سأحاول الآن أن ألتقط زاوية خاصة فى ثقافة الطفل.. وأعنى بها تقديم الشعر للأطفال.. فليس من المعقول أن يكون الشعر ديوان العرب.. ونعرض أو نهمل تقديمه لأطفالنا.

ودعونا نبدأ بتأكيد مهم – دون تحيز – وهو أن الشعر أسبق الفنون إلى وجـدان الصغير.. فالطفل يولد مزودا بحاسـة سادسـة يدرك فيها ما فى الأعمال الفنية من سـحر وجمال.. كما أن النغم وموسيقى الكلام يسبقان إدراكه لمعانى هذا الكلام وألفاظه المفردة.

وأول صوت يدركـه الطفل ويتبينه هو صـوت الأم.. خاصة حينما يبكـى وتندفع إليه أمه لتهزه أو تهـز مهده الصغير فى رقة مصحوبة بموسـيقى صادرة من قلبها تنسـجم مـع إيقاعات هـذا المهد الصغير. وتسمى هذه الأنغام العذبة التى تهدهد بها الأم طفلها (المناغاة).

لقد أدرك الشـعراء – منذ بدأ الشـعر – تأثير هذا اللون من الأدب على الأطفال.. فالشـعر يكاد يترجم حركات الطفـل التلقائية.. ولغته الأولى.. وأجهزة وعيه وشعوره.

وتؤكد الدراسات أن الصياغة الشعرية المغناة تبقى فى وجدان الطفل إلى أزمان طويلة.. ومن ثم فكلما نجحنا فى صياغة كثير من القيم فى مقطوعات شعرية يسهل حفظها وترديدها.. كلما أنشأنا طفلا متذوقا للجمال.

إن الشـعر يمكن أن يقدم من المهد إلى اللحد.. وعلى الشاعر أن يفهم سـيكولوجية الطفل.. وأن يقدم له الشـعر بلغة سليمة سلسة وإيقاعات بسيطة فى مجزوءات البحور التى تتسم بعدم التعقيد.

ومن الضرورى هنا أن نشير إلى بعض الملامح العامة لشعر الأطفال منها:

– استخدام مفردات اللغة لمرحلة العمر.. وللمستوى الإدراكى للطفل.

– تجانس اللفظ مع المعنى بعيدا عن الحشـو والغموض.. ونحن هنا نقدر معجم الطفل اللغوى والمعرفى.

– الإيقاع الموسيقى الظاهر الذى يصلح للغناء.. خاصة على مستوى القصيدة القصيرة.

– تقديم الأفكار والقيم التى تمد الطفل بالتجارب والخبرات وتجعله أكثر إحساسا بالحياة.

– أن يتسم الشعر بالخيال الملائم لإدراك الطفل.

– أن تكون اللغة فصحى شاعرية بسيطة تلائم الإيقاع البسيط.

وأرى أن الشعر يمكن تقديمه فى أشكال مختلفة مثل:

– القصيدة أو المقطوعة سواء كتبت بالشكل العمودى أو الشكل الحديث.

– القصة الشعرية القصيرة التى تحكى مواقف ممتعة شائقة.

– المسرحية الشعرية المركبة وقد تكون قصيرة أو طويلة.

وقد برع شعراء الأطفال شرقا وغربا فى تقديم أفكارهم أهمهم لافونتين فى الغرب.. ومحمد عثمان وأحمد شوقى ومحمد الهراوى ثم جيلنا الحديث فى الشرق.

(٢)

وما يعنينا هنا أن نرصد خطوات هذا الفن الجميل – شعر الأطفال – وكيف بدأ واستقر فى الشرق.

– والحق يقال إن أحدا لم ينتبه إلى هذا الفن قبل منتصف القرن التاسع عشر حين كتب محمد عثمان جلال كتابه (العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ) الذى يتضمن مائتى قصة شعرية تتراوح لغتها بين العامية والفصحى.

وكان عثمان جلال يجيد الفرنسية.. ومن ثم بدأ يترجم عن هذه اللغة مسرحيات موليير وبعض الروايات.. وحينما وقع فى يده كتاب (خرافات لافونتين) عكف عليه أو على حد قوله: «أخذت أترجم فى الأوقات الخالية كتاب العلامة الفرنسى الكبير لافونتين - وهو من أعظم كتب الآداب الفرنسية المنظومة على لسان الحيوان - على نسق كتب: الصادح والباغم - وفاكهة الخلفاء - وسميتها: العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ وتعاقدت مع رجل فرنسى يدير مطبعة من الحجر.. ولكنه أخلف وعده لى.. فجهزت مطبعة أخرى.. وأنفقت عليها ما عندى.. فلما تم طبعها.. عرضتها على العزيز عباس باشا الأول وكان واسطتى إليه المغفور له مصطفى فاضل.. فرمى الكتاب فى وجه حامله.. فعاد بخفى حنين.. فبعت حمارى.. وبقية ما أملك.. وقد ركبنى الهم والغم..» إلخ.

وقد طبع هذا الديوان ثلاث مرات الأولى ما بين ١٨٤٨م - ١٨٥٤م، فى أثناء حياة مؤلفه.. والثانية بعد وفاته بعشر سنوات سنة ١٩٠٨م، والثالثة عام ١٩٨٧م بتحقيق الشاعر عامر بحيرى.. وقد أجمع النقاد - ومنهم العقاد وغنيمى هلال - أن ترجمة الكتاب كانت حرة بحيث اختفت فيها معالم الروح الفرنسية.. وظهرت بوضوح شديد الروح المصرية.. يقول عثمان جلال فى إحدى قصائده:

كان البخيل عنده دجاجة  تكفيه طول الدهر شر الحاجة
فى كل يوم مر تعطيه العجب  وهى تبيض بيضة من الذهب
فظن يوما أن فيها كنزا  وأنه يزداد منه.. عزا

فقبض الدجاجة المسكين وكان في يمينه سكين
وشقها نصفين من غفلته إذ هي كالدجاج في حضرته

لقد كان عثمان جلال رائد هذا الفن بحق من خلال هذا الديوان الذى وضع إرهاصات شعر الأطفال العربى.

وربما نستطيع بشيء من الموضوعية أن نذكر رفاعة رافع الطهطاوى فى كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) الذى أصدره عام ١٨٧٥م.. وواضح من عنوان الكتاب أنه جاء فى صورة إرشادات للتلاميذ فى مدارس وزارة المعارف وجاءت موضوعات الكتاب لتشمل: بيان عربية الأطفال – العقيدة الدينية – التعليم والتعلم – الوطن والوطنية .. وهكذا.

لكن الانصاف يقول إن ما بين عامى ١٨٧٠م و١٨٧٧م نشرت مجلة (روضة المدارس) نتاجا أدبيا للأطفال بأقلام عدد من الكتاب المرموقين ومنهم الطهطاوى ومحمد عثمان جلال وإسماعيل صبرى وحسين الشباسى الذى يقول فى إحدى منظوماته:

البر بالآباء فرض لازمُ من برهم فهو النجى الحازمُ
فأطع أباك وكن لأمك تحت رق مسترضيا لهما لئلا تحترق
واحذر عقوقهما الذى قد حُرما ويحل صاحبه الجحيم جهنما

ويشهد منتصف عام ١٨٩٣م ظهور أول دعوة عربية من مصر لنشر الأدب التهذيبى.. وقرأنا للزعيم مصطفى كامل تلك الأبيات:

هلموا يا بنى الأوطان طرا لنرجع مجدنا ونعز مصرا
هلموا أدركوا العلياء حتى تنال بلادنا عزا وفخرا

نسينا البر للنيل المفدى وخلنا أننا جئناه برا
فعار أن نسمى الذل عزا وعار أن نسمى الشح برا
فقوموا واطلبوا للنيل عزا ولا تبقوا بذل كى يسرا

وما بين عامى (١٨٩٢م - ١٨٩٣م) كتب شوقى بابين فى ديوانه هما:

باب الحكايات وديوان الأطفال.. ونشرت فى طبعة ديوانه الأولى عام ١٨٩٨م. ونلاحظ أن عثمان جلال ـ كما رأينا ـ قد سبق شوقى إلى هذا الفن حين نشر ديوانه (العيون اليواقظ) ما بين عامى ١٨٤٨م - ١٨٥٤م أى قبل مولد أحمد شوقى بنحو خمس عشرة سنة (ميلاد شوقى ١٦ أكتوبر ١٨٧٠م).

وكما حكى لنا عثمان جلال تجربته مع هذه الأشعار.. حكى شوقى أيضا تجربته حين قال فى مقدمته (وجربت خاطرى فى نظم الحكايات على أسلوب لافونتين الشهير) ثم يذكر شوقى بالثناء صديقه خليل مطران - صاحب المنن على الأدب - دون أن يذكر كلمة عرفان أو اعتراف بتأثره بأعمال عثمان جلال الذى سبقه إلى هذا المجال.

وبالرغم من ذلك فقد قدم شوقى إضافة ملموسة فى هذا المجال حيرت النقاد وأضافها بعضهم إلى (الشعر الرمزى) وبعضهم (إلى الشعر التحريضى السياسى).

لكننا لا نميل إلى هذه الآراء.. ومن يقرأ أشعار شوقى للأطفال يشعر بمذاق آخر.. وبقدرة مختلفة على توصيل المعنى.. ومن ذلك قوله:

سقط الحمار من السفينة فى الدجى فبكى الرفاق لفقده وترحموا
حتى إذا طلع النهار أتت به نحو السفينة موجة تتقدم
قالت: خذوه كما أتانى سالما لم ابتلعه.. لأنه لا يهضم

وهى من الحكايات الفكاهية التى أكثر شوقى منها فى هذا الديوان.

– وهذا ناظم أصدر عام ١٨٩٣م كتاب (نظم الجمان فى أمثال لقمان) وقد ضمنه مؤلفه عبد الله فريج خمسين مثلا وضعها فى صورة أراجيز تحكى عن الحيوان أو الإنسان أو النبات ثم ينهى الأرجوزة بمثل من أمثال لقمان.

وإذا كان النظم قد جاء متكلفا إلى حد كبير.. فإنه مع ذلك يضم إلى هذه الإرهاصات الأولى لفن شعر الأطفال.

وإذا كان عثمان جلال قد كتب قصة الدجاجة التى تبيض الذهب.. فقد صاغها أيضا عبد الله فريج فى هذه الأرجوزة.

قيل بأن امرأة محتاجة كانت لها فى بيتها دجاجة
لها تبيض بيضة فى اليوم من فضة سانت بها فى القوم
فافتكرت من غيها الغبية أن تكثر الطعام للشقية
لعلها تبيض بيضتين أعنى بذا فى اليوم مرتين
وإذ لها زودت الغذاء وأوسعت أحشاءها امتلاء
انفجرت حوصلة المسكينة وأصبحت مولاتها حزينة
وصحت الأمثال أن بالطمع يفرق الإنسان كل ما جمع

ونلاحظ أن كلا منهما عالج الموضوع بأسلوب مختلف.

ولابد أن نذكر هنا أن الشعراء الثلاثة السابقين لم يكتفوا بالكتابة على لسان الحيوان لكنهم طرقوا موضوعات أخرى أبطالها بشر.. ومن ثم اكتملت لديهم الصورة حيث جمعت بين هذه الاهتمامات التى تصوروها مفيدة للقارئ الصغير..

- وفى عام ١٩١١م أصدر إبراهيم العرب ديوانه (آداب العرب) ذكر أنه جارى السابقين من كتاب العرب وأدباء الغرب فجعل حكم تلك العظات دائرة على ألسنة بعض الحيوانات المعروفة.. وبالرغم من ذلك أيضا كتب إبراهيم العرب قصائد أخرى تنأى عن الحيوان.. وقد شمل هذا الديوان تسعا وتسعين قصة شعرية.

- وفى عام ١٩٤٠م أصدر جبران النحاس ديوانه (تطريب العندليب) وتضمن سبعا وتسعين قصة شعرية مأخوذة أيضا من لافونتين.

- ونتابع عددا كبيرا من الشعراء يسهمون فى هذا المجال منهم: كامل الكيلانى الذى اعتاد أن يذيل بعض حكاياته بقصيدة شعرية يلخص فيها هذه الحكاية.. ومنهم الصاوى شعلان - وبركة محمد - وعلى عبد العظيم - ومحمود غنيم.. وعادل الغضبان - الذى أصدر ديوانه (الوتر الناعم) عام ١٩٦٢م - ومحمود أبو الوفا الذى كتب أناشيد دينية ووطنية.. وكتب بعض القصائد على ألسنة الحيوانات أيضا.

- أما محمد الهراوى (١٨٨٥م - ١٩٣٩م) فيعد من أوائل الذين انصرفوا بجد وإخلاص إلى شعر الأطفال.

بدأ الهراوى تجربته على مستويات الأطفال المختلفة من الإدراك والاستيعاب تحت عنوان (سمير الطفل) - و(أغانى الأطفال) - و(السمير الصغير) - و(الطفل الجديد).. كما كتب أول شكل للمسرح الشعرى للأطفال وأطلق عليه (تمثيلية شعرية).. ومن أشعاره:

هل تعلمون تحيتى عند الحضور إليكم
أنا إن رأيت جماعة قلت السلام عليكم

ويقول:

أنا فى الصبح تلميذ وبعد الظهر نجار
ولى قلم وقرطاس وإزميل ومنشار
وعلمى إن يكن شرفا فما فى صنعتى عار
وللعلماء مرتبة وللصناع مقدار

ويقول:

رمى غلام بكرة فاقتربت من شجرة
وكان مربوطا بها كلب يخاف ضرره
فدار حول جذعها والكلب يقفو أثره
فقصر الحبل به وراح يأخذ الكرة

ويقول فى نشيد له عن مصر فاز فى مسابقة بين الشعراء:

يا ابن مصر يا عريق النسب قد دعا داعى العلا فاستجب
واطوِ فى الجد بساط اللعب واطلب العزة تحت العلم

ولقد قمت بتحقيق أشعار محمد الهراوى فى كتاب ضم كل ما كتبه للأطفال والذى يبلغ ما يقرب من خمسة وعشرين ديوانا.

– وهناك شعراء آخرون لهم إسهامات قليلة فى شعر الأطفال.. ربما كتبوها فى شكل أناشيد يرددها التلاميذ فى المدارس.. ومنهم على سبيل المثال الشاعر على أحمد باكثير الذى كتب عام ١٩٥٨م نشيد الأم الشهير:

عيـــدك يـــا أمـــى أبـهـــج أعـيـــادى
لـــولاك يـــا أمـــى مـــا كـــان مـيـــلادى

– ومنهم مصطفـى صادق الرافعـى (١٨٨٠م – ١٩٣٧م) الذى اهتم بكتاب الأناشـيد التى يمكـن أن يرقص عليها الأطفـال.. وقد صدر له ديوان (أغاريد الرافعى) فى بغداد عام ١٩٧٩م.

(٣)

ويمكننا الآن أن نقفز إلى حاضرنا.. إلى العشرين سنة الأخيرة حيث بدأت الدعوة إلى كتابة شـعر الأطفال تسـرى بين الشعراء.. بعد صدور دراستى (أطفالنا فى عيون الشعراء) فى منتصف الثمانينيات من القرن الماضى.. وفيها دعوة مخلصة إلى أصدقائنا الشعراء بخوض هذا المجال.. واستجاب الكثير منهم.

نحن الآن أمام جيلين من شـعراء الأطفال.. جيل رسـخ فنه وأصدر أعمال شعرية فى شـكل قصائد ودواوين.. ومسرحيات شعرية وقصص شـعرية.. وجيـل شـاب تحمس لهذا الاتجـاه وبدأ يضيـف تجربته الخاصة.

– نحن أمام أسماء كثيرة فى مصر تزدحم بها السـاحة.. منهم من الجيل الراسـخ: عبد العليم القبانى من شعراء الإسكندرية والذى تميز

بخفة الظل سواء فى أشعاره التى كتبها للكبار أو الصغار.. ومن أعماله الشعرية فى مجال الطفولة ديوانه (قصائد من حديقة الحيوان).. يقول فى قصيدته (العصفور والحية):

على الأغصان عصفور صغير السن مغرور
رأى فى الحيـة الرقطا ء حسنا فهو مسرور
وما يدرى بأن السم تحت الناب مستور
وأقبل نحوها يسعى فنادته العصافير
تحذره من الأفعى فإن حنانها زور
فلم يعبأ بما نصحت وللأوهام تأثير
وغنى حولها طربا فأمسى وهو مقبور
فمن يغتر بالأوها م تهلكه القادير

– أما محمد السنهوتى فهو من شعراء محافظة الشرقية وله عدة دواوين شعرية للأطفال وقد ركز على الحكاية الشعرية المتلئة بالقيم الإسلامية والإنسانية سواء أكتبها على لسان الحيوان أم على لسان البشر.. من ذلك ما يقوله فى قصيدته (الفيل والنملة):

الفيل قال: سأقتل النملة يا ويل من عاديت يا ويله
ستدوسها قدمى فتسحقها سحقا وتلك مهمة سهلة
إن لم تجئنى وهى صاغرة وتقدم القربان فى ذلة
وجرى رسول الفيل ينبئها بوعيد هذا الأحمق الأبله
ردت عليه وهى ساخرة إنى حزنت لفقده عقله

– وهـذا أحمد نجيـب كاتب الأطفال الذى تعـددت أعماله.. كتب ديوانا للأطفال والناشئة.. ويضم عددا من الأناشيد البسيطة التى تتناول عالمه وألعابه وأدواته.. ومن ذلك مثلا:

هيـا نجـرى نحـو الملعـب صفـق معنـا وامـرح والعـب
هـذى كرتـى مثـل الأرنـب تجـرى معنـا حتـى نتعـب
نجلـس حينـا عنـد النهـر وسـط الظـل وقـت الظهـر
وتـرى الـورد رمـز الحسـن مـال جمـالا فـوق الغصـن

– ويبدأ جيل آخر فى مصر يضم كوكبة من الشعراء منهم:

إبراهيم شـعراوى – أنس داود – أحمد الحوتى – أحمد سـويلم – سمير عبد الباقى – عبد المنعم عواد يوسـف – نشـأت المصرى – أحمد زرزور – درويش الأسـيوطى – محجوب موسـى – فؤاد بدوى – أحمد فضل شبلول – فوزى خضر – أحمد مبارك – حسين على محمد.

ولن نستطيع أن نحيط بتجربة كل شاعر على حدة.. لكنى سأحاول اختيار بعض النماذج المتاحة لهؤلاء الشعراء:

يقول إبراهيم شعراوى فى أوبريت (الوسام) على لسان الزارع:

أنـا الـزارع فلتنظـر إلـى عالمنـا الأخـضـر
وعنـدى البيـض فى حقلـى وعنـدى عسـل النحـل
وعنـدى الفـول والعدس مـع الملفـوف والخـس
وعنـدى اللحـم والسـمن وعنـدى الزبـد والجـبن

– وهذا أنس داود الذى كتب عدة مسـرحيات شـعرية للأطفال إلى

جانب عدد من الدواوين.. وهذه قصيدة (وجه غاب) يقول فيها:

كان اسمه مراد
وكان وجهه الوضيء فى الصباح
طلعة الأفراح
وكان صوته الودود للأولاد
بهجة الأولاد
رفاقه فى الدرس والطريق والألعاب
لكنه ذات صباح.. غاب
وانتظر الصحاب
وعندما تساءلوا: متى يعود
لم يعرفوا الجواب

– أما أحمد الحوتى فله عدة أعمال شعرية للأطفال.. وهو مثل أنس داود يكتب القصة الشعرية بشعر التفعيلة ـ وله حكاية بعنوان (الورد والشجرة) يقول فيها:

حكى لى شيخ قريتنا
بأن الورد والشجرة
تماما مثلنا أطفال
وأن الورد يفرح حين نسقيه
ونرعاه ويبكى لو قطفناه
وفى مرة

دخلت حديقة الحيوان
أنا وجميع أصحابى
وكنا نلعب الألعاب
بعيدا عن مكان الورد والأشجار
رآنا الشيخ حيانى وحياهم

وتنتهى هكذا الحكاية بحكمة بالغة تعتمد على ذكاء الطفل.

وليسمح لى القارئ أن أعرفه على أعمالى الشعرية للأطفال.. فهى تتراوح بين المقطوعة القصيرة والقصيدة والقصة الشعرية والمسرحية الشعرية – ومن ذلك مثلا (أنا والقطة):

لى قطة صغيرة
لكنها شقية.. عنيدة
لاعبتها بالأمس بالكرة
أقذفها بعيدة.. بعيدة
فتسرع القطة خلفها رشيقة سعيدة
ومرة ومرة.. قذفتها بعيدا
سابقت قطتى لها
لكنها شقية عنيدة
أثارت الغبار فى طريقى
وأسرعت تلقفها قبلى
صرخت فيها غاضبا

ضربتها.. ضربا شديدا مؤلما
قالت: لماذا ثرت يا صديقى
أليس ما نفعله مسابقة
أليس هذا لعبا
فيه الذى يفوز
وفيه من يخسر فى السباق
قلت لها: إنك فزت بالخديعة
أثرت فى وجهى الغبار
قالت: ظلمتنى.. فالأرض يا صديقى متربة
وسرعتى تثير ذلك التراب
ما حيلتى.. ما حيلتى
أدركت أننى ظلمت قطتى
ضممتها.. قبلتها
قلت لها: فى المرة التى تجئ فى الغد
سوف أفوز فى السباق
قالت: وكيف
قلت: سوف ألبس النظارة الشمسية
ولن أخاف ذلك الغبار!

– وهـذا سمير عبـد الباقى الذى أعطى الكثير مـن إبداعه للأطفال بالفصحـى إلى جانب أنه شـاعر مبدع فى العاميـة.. يقول فى قصيدته (على الأرجوحة):

على أرجوحتى أعنو
تدور برأسى الأفكار
أرى نفسى أطير.. أدور
كأنى طائر الوروار
أسابق نحلة العسل
أزور الورد والأزهار
وأعلو مرة أخرى
كأنى طائر جبار

– أما عبد المنعم عواد يوسف فله عدة دواوين ومسرحيات شعرية كتبها للأطفال وفى قصيدته (عيون الفجر) يقول:

لعيون الفجر تغنينا ومـلأنا بالورد يدينا
وبدرب الأفراح مضينا ولنيل الأهداف سعينا
من نبع الحب تساقينا أشواقا تملأ عينينا
نحن الأطفال أصل الأجيال زهر الآمال لعيون الفجر

– وهذا نشأت المصرى الذى مد الأطفال بعدد من الأعمال الشعرية والنثرية.. ومن قصائده (قصة الحجر) يقول فيها:

الزائر الغريب قال:
لو أننا نسمع ما تقوله الأشياء
ندرك أن غاية الوجود.. عبادة المعبود
الله لا سواه.. الله لا سواه

وهكذا أراك يا سيدة البحار
عابدة لله.. كثيرة الأفضال
طويلـــــة النضال
ليستمر الكون والحياة
قلت: أنا كما ترى ذبول واصفرار
قال الغريب: بل أراك قطعة من الجمال
تاريخك العطاء والكرم
ولا يهم الشكل لا يهم
وذات يوم رأيت طفلا كالقمر
فى يده حجر
أراد أن يقذفنى فطار فى الهواء
ثم أطلق الحجر
أصابنى فقلت: آه.. يا لقسوة القمر
فالحجر المرتد قد أصاب رأس الطفل بالضرر
وبعد لحظة ضحكت
– وهذا أحمـد زرزور الذى رأس تحرير مجلة قطر الندى فأخلص فى عطائه للطفل فى سنى عمره المختلفة.. ومن أعماله (الولد الذى صار طبيبا) يقول فيها:
سمعت ذات ليلة من جدتى الحنون
حكاية غريبة عن ولد شقى

تعود الكذب
تعود الخداع والدهاء
وكان يومه يمر فى تدبير ألف مقلب ومقلب
مستهزئا من طيبة الصحاب
وذات يوم – يا أحبتى –
تقول جدتى
وكان هذا الولد الشقى يستحم
والموج عند الشاطئ البديع
هادئ رقيق
وساكن وديع
فصاح: يا صحاب أسرعوا
فإننى أضيع
أنقذوا أخاكم الذى يحيطه الخطر

ويكمل الشاعر حكاية الولد الشقى الذى كان يسخر من أصحابه فى كل مرة يمثل فيها الغرق.. حتى كاد التيار يبتلعه بعدما انصرف عنه الأصحاب لكذبه وخداعه:

لولا اقتراب زورق يمر صدفة
فأسرع البحار
وأنقذ الصبى من براثن الأخطار

– وهذا درويش الأسيوطى الذى يعيش فى صعيد مصر.. يعطى جانبا من إبداعه للطفل.. ويصدر ديوان (أغنيات للصباح) يقول:

حيوا الصباح الجميلا
وهللوا تهليلا
واستقبلوا فيض ربى
بالشكر شكرا جزيل
الشمس قرص من ذهب
والعشب فرش سندسى
سبحان ربى من وهب
هذا الجمال القدسى

– وهذا محجوب موسـى الذى يعيش بالإسكندرية.. وقد كتب عدة مسرحيات شعرية للأطفال.. يقول عن (الحرية):

لماذا كلبتى يا عم لا تنبح
ولا تمزح
ولا تلهو معـى كالأمس
تقـول: لأنها فى الحبس
وأين الحبس
إن حديقة الدار
بها بيت لكلبتنا نزينه بأزهار
تقول: انظر لسلسلة تقيدها
أنا أدركت يا عمى
سأسعدها بفك القيد

فما فى الكون من فرح عظيم
مثل (حرية)
– أما الشاعر فؤاد بدوى فله عدة دواوين للأطفال وتتميز بالسهولة والسلاسة.. يقول فى إحدى قصائده:
الأطفال ربيع الدنيا
بسمة نور
نسمة سحر
تسرى.. تجرى
يا ربى.. يا واهب عمرى
اجعل أيامى أزهارا
تنمو بحديقة أطفال.
– وهذا الشـاعر أحمد فضل شبلول الذى اهتم بشعر الأطفال دراسة وتحقيقا وإبداعا.. يقول فى قصيدته (كرة):
تدور العين فى الملعب
على الأقدام والجبهة
وتجرى الساق
وفوق العشب عند قوائم المرمى
يدور سباق
وألعاب لها فن
وتخطيط له علم

وساحرة علـى الأعناق
هتافات ترج مقاعد الإستاد
وتصفيق وتهليل
إذا اهتزت شباك الخصم
ونال فريقنا القومى
كئوس النصر
وتشرق شمس نهضتنا الرياضية
وتسبح فى بحار الفخر

– وهذا فوزى خضر الذى تعدد عطاؤه بين الشـعر والكتابة للإذاعة وثقافة الأطفال.. يقول فى قصيدته عن أبنائه الثلاثة:

كل قلوب الناس
أقسام أربعة
فأذين أيمن
وأذين أيسر
وبطين أيمن
وبطين أيسر
لكن قلبى قسم لثلاثة أقسام
قسم لمحمد
قسم محمود
قسم لشروق

كل صباح أسعى من أجلهم
أعطى كلا منهم قسمته
من نور القلب

– وهـذا أحمـد مبـارك الذى أبدع بعـض الدواوين والمسـرحيات الشعرية للأطفال.. يقول فى إحدى مسرحياته:

بعد اللعب سأرجع لاستذكارى
أما الآن سأمرح وسأقطف بعض الأزهار
وأصيد فراشات
وسأصعد فوق الأشجار
وسأفعل ما يحلو لى

– أما الشـاعر حسـين علـى محمد فقـد كتب عدة أعمال شـعرية للأطفال.. يقول فى إحداها:

تعرفنى كل المدن
وتعشق مصنوعاتى
فى أثناء الأسعار
أجد الأطفال عرايا
يفترشون تراب الأرض
فأحزن
أتمنى أن يجد الأطفال بيوت
تحميهم من حر الشمس
وتقيهم شر الأمطار

( ٤ )

وهناك أجيال من الشباب الذين وضعوا أقدامهم فوق هذا الطريق لكنهم لم تكتمل تجربتهم.. برغم من أنهم يحاولون بمذاق مختلف.. وأسلوب يؤكد استمرار هذا الفن النبيل.

**وبعد:**

فهذه خريطة شعر الأطفال فى مصر.. والتى توضح ريادة هذا اللون من الإبداع.. والذى انتقل إلى كل بلد عربى.. فأخرج عددا من الشعراء هنا وهناك يضيفون تجاربهم وأفكارهم.. ويسهمون فى رسم بقية ملامح الصورة.

بقى أن نقول: إن مجال شعر الأطفال يمكن أن يكون له روافد كثيرة إلى جانب رافد القصيدة.. فهناك الحكاية الشعرية.. والموقف الشعرى والملحمة الشعرية والمسرحية الشعرية.. وبهذا نثرى ساحة الطفل بالإبداعات التى تجعله طفلا عربيا ذا هوية عربية ورؤية خاصة للعالم.

* * *

# شوقى وحكاياته الشعرية

(١)

هل

يستطيع أى شاعر يكتب للكبار.. أن يكتب أيضا للأطفال؟ إن الإجابة على هذا السؤال تحتم علينا أن نقترب من هذا العالم الصغير الذى يوجه الشاعر إليه إبداعه.

فمن المسلم به أن هذا العالم لصغير تتعدد مراحله العمرية.. وبالتالى فإن الشاعر هنا مطالب بمعرفة الاحتياجات النفسية والثقافية لكل مرحلة لكى يمكنه أن يتعامل مع هذه الاحتياجات لغويا وثقافيا وفنيا.. فما يكتب لطفل ما قبل المدرسة يختلف عما يكتب لمرحلة الطفولة.. كما يختلف عن مرحلة (الناشئة) التى تتراوح ما بين ٩ و ١٢سنة.. حيث تبدأ بعد ذلك المرحلة الأخيرة التى تنتهى - علميا - على مشارف الثامنة عشرة من العمر.. مع ملاحظة أن حدود هذه المراحل قد تضيق أو تتسع حسب الفروق العقلية للصغار فى كل مرحلة.

ثم إن الشاعر الذى يقرر التعامل مع هذا العالم الصغير.. ينبغى أن يدرك أنه باقتحامه هذا العالم قد انضم إلى فريق كبير من التربويين وعلماء النفس والكتاب وغيرهم ممن يهتمون بهذا العالم.. وتقع على عواتقهم مسئولية التنشئة والتربية.. أى أنه يصبح مسئولا عن تربية الأجيال القادمة.

لهذا.. فلا يكفى لشاعر فذّ يكتب للكبار.. أن يكتب أيضا للصغار لمجرد أنه يمتلك اللغة وفن الكتابة.. لكنه فى حاجة إلى معرفة أخرى بسيكولوجية الصغير وإطار ثقافته.. وفنية ما يقدم له.. ومناسبة اللغة لمرحلته العقلية.. وقبل ذلك كله.. فى حاجة إلى لون آخر من الموهبة تجعله طفلا يتعامل مع الأطفال. وهناك جانب آخر من المعرفة تتعلق بإدراك أهمية الشعر للأطفال فى مراحلهم المختلفة.

لقد أثبتت البحوث أن الشعر أسبق إلى وجدان الصغير من القصة ومن النثر.. فهو فى طفولته المبكرة ينصت إلى الإيقاع المنغم ويبتسم ويهتز ويرقص.. برغم من عدم فهمه لأى لغة أو كلمات وهو ما يسمى بفن ترقيص الأطفال – أو أغانى المهد – أو الهدهدة.

ولا يختلف أحد على أن الموسيقى الموقعة تشبع الأحاسيس وتوقظ الوعى.. ومن ثم يقترب جوهر الموسيقى من جوهر الشعر الذى يجتهد فى تحويل الواقع إلى ما يشبه الحلم.. وإلى ترطيب الحلم بالصورة والإحساس لعله يصبح واقعا.. وهنا تبرز أهمية الكلمة الشاعرة ويصبح لها المقام الأول لحمل تلك الأحاسيس المرهفة التى يتميز بها الطفل فى سنواته الأولى.

(٢)

تلك أهم العلامات على طريق الكتابة للأطفال –خاصة الشعر–ولهذا فإن ساحة الكتابة تفتقر إلى مزيد من الشعراء الذين يمتلكون الموهبة والمعرفة والطفولة.. تلك التى تؤهلهم لرسم خريطة الكتابة الشعرية للطفل.

وها نحن الآن أمام شاعر كبير جرب خاطره ـ على حد قوله ـ فى نظم الحكايات على أسلوب (لافونتين) الفرنسى الشهير.. وكان إذا فرغ من وضع أسطورتين أو ثلاث يجتمع بأحداث المصريين ويقرأ عليهم شيئا منه.. إلخ.

وقد نظم شوقى حكايات الحيوان تلك فى عامى ١٨٩٢م – ١٨٩٣م فى الفترة التى عاشها فى باريس.

والحق يقال إن الحكاية على لسان الحيوان ـ وأيضا الشعر الذى يتحدث عن الحيوان – قديم فى كل الآداب العالمية.. وهو عند العرب أيضا قديم.

لقد عرف هذا اللون فى حضارات مصر واليونان وفارس.. ويعتبر المصريون من أسبق شعوب العالم إلى هذه الحكايات.. إذ يرجع تاريخ (حكاية السبع والفار) المدونة على أوراق البردى إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد.. على حين ترجع خرافات إيسوب اليونانى إلى القرن السادس قبل الميلاد.. وبعض المؤرخين يرى أن الهند قد كتبت أيضا حكايات الحيوان – فى حكايات تناسخ بوذا – بل نجد علاقة الإنسان بالحيوان – ومنه الطير كذلك – تبدأ منذ وطئ آدم الأرض.. فغراب قابيل علمه كيف يوارى سوءة أخيه.. وإبراهيم عليه السلام قد اطمأن قلبه حينما نادى على الطير الميت.. فجاءت طائرة إليه.. وكبش إسماعيل عليه السلام وقد أنقذه من الموت المحقق.. وحوت يونس الذى حفظه حينها ثم أخرجه حيا.. وبقرة بنى إسرائيل التى كانت معجزة

بـين أيديهم.. وحمار العزير وكلب أهل الكهـف يؤكدان قدرة الخالق العظيم على إحياء الموتى.. وعنكبوت الغار الذى حفظ الرسـول الكريم من بأس أعدائه.

ولم يكن العـرب بعيدين عن هذه العلاقة.. فقد شـاركهم الحيوان حلّهـم وترحالهم وليلهم ونهارهم فمنهـم من آنس إلى الحيوان ومنهم من نفر منه وعبروا عن ذلك فى أشعارهم.

فـإذا انتقلنـا إلى عصر ابن المقفـع (٧٢٤م - ٧٥٩م) فنحن أمام نقلة أخرى فى أدب الحيوان أحدثتها ترجمة (كليلة ودمنة) إلى العربية.

لقد نقل ابن المقفع هذا الكتاب إلى العربية نثرا.. وترجم مرة أخرى على يد (عبد الله بن الأهوازى) بتكليف من جعفر البرمكى.. كما نظمه شـعرا أبان اللاحِقى.. وحاكاه فى ذلك كثيرون منهم: سهل بن نوبخت وغيره.

وفُتـح الباب لمحاكاة كليلة ودمنة على مـر العصور.. ومن ذلك أن سـهل بن هارون ألف كتاب (ثعلة وعفراء).. وداود بن سهل بن هارون فى كتابه (النمر والثعلب) كما نسج (إخوان الصفا) رسائلهم على منوال كليلـة ودمنة.. وهذا أبو العـلاء المعرى الذى ألف (الصـادح والباغم) و(خطب الخيل) و(أدب العصفورين).. لكن لافونتين الفرنسى (١٦٢١م - ١٦٩٥م) بتأثره بكليلة ودمنة وخرافات إيسـوب وغيرها.. يعد أول من نبه إلى أهمية حكايات الحيوان الشعرية فى العصور المتأخرة.

ويلتقط الخيط محمد عثمان جلال فى أوائل القرن التاسع عشر ويصدر

مـا بـين عامـى (١٨٤٨م -١٨٥٤م) ديوانه (العيون اليواقـظ فى الأمثال والمواعظ) فى ٢٠٠ قصة شـعرية متأثرا بلافونتين وكليلة ودمنة وإيسوب ولقمان والتراث العربى فى أمهات الكتب فأسـس بذلك فن كتابة الشـعر للأطفال بالعربية فى العصر الحديث.

ولابد أن أحمد شوقى قد قرأ العيون اليواقظ التى صدرت قبل ميلاده بنحو خمسـة عشر عاما (ميلاد شوقى ١٦ أكتوبر ١٨٧٠م) لكن شاعرنا الكبير لم يذكر ذلك طيلة حياته.. ولكنه استرسـل فى مقدمته لديوانه داعيا غيره من الشعراء - خاصة خليل مطران - إلى إيجاد شعر للأطفال وأن يساعده سائر الأدباء على إدراك هذه الأمنية.

ونتسـاءل هنا فى هذا السـياق: ما الذى دفع أحمد شـوقى - وهو شاعر فذّ كبير - إلى أن يكتب للأطفال؟ وهل كان يملك الموهبة والمعرفة والحنان والطفولة التى تؤهله إلى ذلك؟

تبـوح حياة شـوقى الخاصة ببعـض الملامح التى تجيـب على هذا التسـاؤل.. فقد كان يمتلـك قلبا طيبا.. وروحا محلقـة طائرة.. وعطفا تلقائيـا.. وحنانا ظاهرا.. وبرا بوالديه كبيرا.. وكان يمتلك ما نسـميه براءة الدهشة عند الأطفال.

ويحكـى سـكرتيره الخاص أحمد سـامى أبو العز أن الشـاعر كاد يصعق حينمـا أبلغوه بأن لأبيه أياما معدودة ويرحـل عن الدنيا.. كما شعر بصدمة عنيفة حينما فارق أمه وبعد عن الوطن سنة ١٩١٥م قاصدا أسـبانيا.. وكأنـه طفل صغير ابتعـد عن أمه. ولم يكن له سـوى أخت

واحـدة تنازل لها عن حقـه فى ميراث أبيه. كما أنهـا حزنت لغيابه عن الوطن وأصابها مرض لازمها أحد عشـر عاما حتى وفاتها.. ويذكر أنه لم يغضب أحدا من أهله قط.. وكان مجلسـه مجلس مرح ومداعبة.. وإذا رأى أحدا مقطبا اهتم بأمره.. وكان يطلق على أفراد أسـرته أسماء محببـة يدللهم بها.. فمثـلا يدعو نجليه: لولو.. وسيسـى وأحفاده: مادة. لولوت.. حتى خدمه كان يعطف عليهم ويساعدهم ويجاملهم.

وقد انعكس هذا كله فى أشعاره التى خاطب بها أو تحدث فيها عن أبنائه ومواليد الأسرة ومواليد أصدقائه.. ومحبة الأم والجدة.. بكلمات ملؤها العطف والحنان والرقة والعذوبة.

وهـا هـو كان – حين يكتب للأطفال – يعرض علـى هؤلاء الصغار ما يكتب ربما ليعرف تأثـير ما كتب عليهم.. فوجدهم يفهمونه لأول وهلة.. ويأنسون إليه ويضحكون منه.

وربمـا كان يعنى من هذه التجربة أن يختصر الطريق فلا يكتب فى فراغ وإنما يجرب ذلك على قارئه الصغير.

وبالرغم من أن هذا القارئ يعيش فى بلاد أجنبية – فرنسا – وقد تكون ثقافته مختلفة نسـبيا عن نظيره الذى يعيش فى الوطن العربى.. فإن الشـاعر – وإن كانت تجربته من الخـارج – قد أفاد كثيرا من هذه التجربة فقد قرأ لافونتـين.. وترجم عنه لقراء صغار قد يكونون قرأوا أيضا لافونتين فى لغته الفرنسية.. ومن ثم فقد استمر شوقى وكتب هذا العدد الكبير من القصص على ألسنة الحيوانات.

والغريب أن الشاعر حين نشر هذه الأعمال ووجه بآراء مختلفة من الكبار لما قدمه فى هذه الأقاصيص.. وانقسم الناس حيالها.. فمنهم من تعامل معها على أنها من قبيل التسلية وإزجاء الفراغ.. ومنهم من حاول تحميلها معانى ورموزا سياسية واجتماعية أسقطها الشاعر على أحداث وشخصيات زمانه.. باعتباره شاعرا له مكانته الشعرية التى ينأى بها عن مجرد التسلية أو إزجاء الفراغ.

وقد حاول د. سعد ظلام فى كتابه (الحكاية على ألسنة الحيوان فى شعر شوقى) أن يناصر هذا التحليل ويؤكد الحس السياسى الذى يختفى تحت جلد هذه الأقاصيص ومن ذلك مثلا:

قصائد السفينة: القرد - نوح والنملة - الدب والثعلب - الليث والذئب - الأرنب وبنت عرس - الحمار.. حيث يرى أنها قصائد تدل على عهد عباس حلمى الثانى - قائد السفينة - وما كان يؤمله الشاعر من الخديوى الشاب ومدى حاجته إلى إحداث تغيير جوهرى فى أساليب الحكم والحكومة.

ثم قصائد: فأر الغيط وفأر البيت. الديك الهندى والدجاج البلدى.. تتصل بالوعى القومى فى مصر.

وقصيدة: النعجة وأولادها: تعايش فكرة المناداة بالخلافة العباسية.

وقصيدة: الأسد والضفدع: تتصل ببدايات عباس حلمى وصلته بالعرابيين.

وقصيدة: أمة الأرنب والفيل: تتصل بالسودان والثورة المهدية.

وقصيدة: الثعلب الذى انخدع: تتصل بالاحتلال الإنجليزى.. وهكذا.

ولا نستطيع أن نجزم بصحة هذا التفسير.. خاصة أن أحمد شوقى كان فى وضع سياسى واجتماعى دقيق.. يجعله حائرا بين حسه الفنى وموالاة السلطة التى يدين لها بالمولد والمحبة.. ولو كان شوقى يقصد هذا حقا لأرخ لهذه الحكايات تاريخا دقيقا صريحا يجعلنا نحيل رمز الحكاية مباشرة إلى الحادثة أو الشخص المقصود.

(٣)

هكذا إذن امتلك شوقى تلك السمات والرؤى والمشاعر بالقدر الذى تقربه من وجدان الطفل.. وتجعل منه شاعرا للكبار والصغار معا.

لكننا ينبغى أن نضع ما كتبه شوقى فى هذه الأقاصيص فى موضعه الصحيح.. ونعنى بذلك أن الشاعر كان يوجه أعماله هذه إلى المرحلة العمرية القارئة الفاهمة المتذوقة.. أى إلى (الناشئة) أو على حد تعبيره هو (الأحداث) فإذا عدنا إلى معاجم اللغة يمكننا أن نلتقط منها هذه المفردات:

الحدث: هو الشاب فتى اللسان.

الصبى: من لدن يولد إلى أن يفطم.. أو هو الغلام.

الناشئ: هو فوق المحتلم أو هو الحدث الذى جاوز حد الصغر.. ومن بلغ الحلم فجرى عليه حكم الرجال.

ولهذا فنحن نميل إلى أن الشاعر قصد تقديم أقاصيصه هذه إلى الأحداث (على حد تعبيره) أو الناشئة (كمصطلح لغوى وعلمى) حيث

نجد المستوى اللغوى والفكرى والموسيقى يتناسب مع هذه المرحلة.. ونجد صعوبة أن يستوعبه عقل الصغير قبل هذه المرحلة.

هذا بالإضافة إلى أن الشاعر قد اعترف بما لا يدع مجالا للشك أنه قصد أن يتوجه إلى (أحداث المصريين يقرأ عليهم شيئا منها فيفهمونه لأول وهلة.. ويأنسون إليه.. ويضحكون من أكثره).

هو إذن قد كتب هذه الأعمال للأحداث وكان يجربها عليهم.. وهنا ينبغى علينا أن نضع فى اعتبارنا أن لغة الشاعر هنا تختلف عن لغته فى سائر شعره.. وهو باب يسمح له أن يترخص لغته حتى يهيىء للأحداث أن يفهموا الحكاية.

كما يجب أيضا أن ندرك أن هؤلاء الأحداث مختلفون عن قرنائهم الذين يعيشون فى البيئة المصرية.. فلابد أن محصولهم اللغوى من العربية أقل كثيرا من قرنائهم.. ومع ذلك فهم قد فهموا الحكايات وأنسوا لها.. وضحكوا من أكثرها.

وهذا القصد من الشاعر لا يجعلنا نميل إلى تحميل هذه الأعمال بإسقاطات سياسية مختلفة.. تربك الأحداث الصغار.. وتصرفهم عن الاستمتاع بالحكاية.

ويمكن أن نجد فى شعر شوقى قصائد أخرى من قبيل الأناشيد أو المقطوعات التى تتعلق بعالم الطفل والتى تميزت بهذا الأسلوب البسيط المختلف عن لغة شوقى فى قصائده المعروفة مثل: النيل - نشيد مصر - نشيد الكشافة - الحرية - نشيد العالم - الجدة - الأم - المدرسة - ساعة - نشيد المولد النبوى.

فشوقى الذى كتب:

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كف فى المدائن تُغدق

كتب للناشئة:

النيل العذب هو الكوثر ... والجنة شاطئه الأخضر

ريان الصفحة والمنظر ... ما أبهى الخلد وما أنضر

البحر الفياض القدسُ ... الساقى الناس وما غرسوا

وهو المنوال لما لبسوا ... والمنعم بالقطن الأنور

أما حكاياته عن الحيوان.. فهى مستمدة من لافونتين الذى استلهمها من أيسوب ولقمان وكليلة ودمنة وحكايات الحيوان عند العرب.

وكما فعل محمد عثمان جلال فعل شوقى.

فكل حكايه تنتهى - غالبا - بمثل أو حكمة تلخص أو تفسر هذه الحكاية ويكاد شوقى يجمع عددا كبير من الحيوانات والطيور فى حكاياته.

ومن بين هذه الحكاية مجموعة (السفينة والحيوانات) حيث تخيل شوقى سفينة نوح.. وهى تبحر عبر الطوفان.. وقد حملت الحيوانات المتنافرة المتعادية.. لكن المحنة ألّفت بينها.. فنسيت العداء والتنافر حتى إذا استقرت السفينة على الأرض.. عادت الحيوانات سيرتها الأولى من العداء.. والكراهية.. وتجلى ذلك فى قصائد:

القرد فى السفينة - نوح والنملة - الدب فى السفينة - الثعلب فى السفينة - الليث والذئب - الثعلب والأرنب - الحمار فى السفينة - الأرنب وبنت عرس.

وهناك قصائد أخرى ثنائية مثل: الثعلب والديك – الشاة والغراب – فأر الغيط وفأر البيت – الأسد والضفدع – الأسد والحمار – البغل والجواد – الجمل والثعلب.. إلخ.

وهذه معظمها حكايات أخلاقية تنتهى بحكمة ما مثل قصيدة الحمار وثعالة.. التى تقول:

أتى ثعالة يوما  من الضواحى حمارُ
وقال إن كنت جارى  حقا ونعم الجارُ
قل لى فإنى كئيب  مفكر.. محتارُ
فى موكب الأمس لما  سرنا وسار الكبارُ
طرحتُ مولاى أرضا  فهل بذلك عارُ؟
وهل أتيت عظيما؟  فقال: لا يا حمار

حكمة ساخرة كما نرى.

أو قصيدة الثعلب والديك الشهيرة التى تبدأ:

برز الثعلب يوما  فى ثياب الواعظينا

وتنتهى على لسان الديك:

مخطئ من ظن يوما  أن للثعلب دينا

أو قصيدة سليمان والطاووس.. وقد طالبه الطاووس أن يمنحه صوتا جميلا فيكتمل جماله.. لكن سليمان يعرف كم هو مغرور بشكله فما بالنا لو منح صوتا جميلا أيضا.. وفى نهاية القصيدة يقول:

فلو أصبحت ذا صوت  لما كلمت إنسانا

من ثم حرص شـوقى على إبراز القيم والعادات والسمات السيئة فى نفوس البشـر على ألسـنة الحيوانات: الغرور - الكبر - الكراهية - الطمع - الحقد - الحسد - الغباء.. إلخ. ولكن بصورة درامية من خلال موقف أو حكاية تنتهى بحكمة أو مثل..

بقى أن نقول كلمة حق فى هذا المجال:

فـإن محمد عثمان جلال الذى كتـب (العيون اليواقظ) قبل منتصف القرن التاسـع عشـر لم ينل حقه من التكريم بالرغم من ريادته فى هذا المجال.. ومن الغريب أن أحمد شـوقى حينما طرق هذا الباب لم يذكر جهـد محمد عثمان جـلال وكأنه أوهم الناس أنه رائـد هذا الباب من الإبداع.. بل أخذ يذكر بالثناء والمدح صديقه خليل مطران. صاحب المنن على الأدب والمؤلف بين أسلوب الإفرنج فى نظم الشعر ونهج العرب.. هكذا..

وأغلب الظن أن شـوقيا بحكم شاعريته وقربه للسلطة ـ فى زمانه ـ كان يملـك أن يقنع الناس بما يود أن يقنعهم به.. فهو (يجرب خاطره فى نظم الحكايات) ويدعو شـعراء آخرين إلى محاكاته فينظر إليه على حساب غيره الذى يعيش فى الظل.

لقد أردت أن أؤكد هذه الحقيقة التاريخية فى سبق الكتابة الشعرية للأطفـال والناشـئة.. دون أن أتخذ موقفا مضادا من أمير الشـعراء فقد أضاف الكثير إلى هـذا الباب.. وقد تفوق فى بعض أعماله على ما كتبه عثمان جلال (نلاحظ هنا فرق الزمن والتجربة بين الشاعرين).

# شـــعر الأطفال
# بين الفصحى والعامية

منذ الثمانينيـات من القرن الماضى وأنا أحث إخوتى الشـعراء على الكتابة للأطفال.. مؤكدا أن الشـعر أسـبق إلى وجدان الطفل من القصة أو أى لون آخر من ألوان الإبداع.

والحق يقال إن عددا كبيرا من الشـعراء قد استجاب لهذه الدعوة وأخذ يبدع وينوع فى أعماله الشـعرية بالفصحـى أو بالعامية وفى قوالب مختلفة ابتداء من المقطوعة القصيرة مرورا بالقصيدة.. وانتهاء إلى المسرحية الشعرية.

واليوم يمكن أن نؤكد باطمئنان وجود هذا التيار الفنى الجميل الذى يتمثل فى شعر الأطفال.

لكـن الملاحظة العابرة الأولى.. أن ما صدر من أشـعار بالعامية يكاد يكون ضعف أو أكثر مما يصدر من أشـعار بالفصحى.. وعلى أية حال.. فأنا لا أنوه عن ذلك من باب التعصب للفصحى أو العداء للعامية.. وإنما هـى ملاحظة تجعلنا ندعو إلى إحداث التوازن بين شـطرى اللغة.. فى أعمال الأطفال التى تحتضن ألوان المعرفة والإبداع.

وسوف تشمل هذه الدراسة عدة دواوين شعرية بالفصحى والعامية..

ونبدأ بشـعر الفصحى ومع الشاعر نشأت المصرى ذلك الشاعر الذى أصدر فى مجال الأطفال عددا من الأعمال أهمها:

حديث الأشجار ـ صانعة الإشعاع ـ البذور الغامضة ـ خالد بين الأخطار – حكايات الشجر – أصغر فيل فى العالم – الأحجار الثلاثة – تسالى رمضان.

وأصدر له كتاب قطر الندى (للأطفال أجنحة) برسوم الفنان محمود الهندى.

ويتضمن هذا الديوان الأخير عدة قصائد بعضها على لسان الشاعر وبعضها الآخر على لسان الطفل نفسه.

ونشأت المصرى تنساب لغته سلسلة يسيرة دون صعوبة وهو فى صوره يلتقطها من عالم الطفل أيضا.. ولا يغرق فى رسمها حتى لا يضيع السياق من ذائقة الطفل.

يقول مثلا فى قصيدته (رأس البر):

أغمضتُ عيونى حتى فجر اليوم
لكنى لم أعرف طعم النوم
ساعاتٌ تمضى ثم أرى البحر الأبيض
وأرى الماءَ المالح..
قبل بلوغ المسكن زرنا البحر
ومشيت على الرمل المبتل
وابتل حذائى والخطو اختل
وغمست يدى فى الماء الأزرق
والماء تفرق

ماذا لو أتذوق
فمسحت يدى بلسانى
وامتدت نظراتى.. امتدت
فالماء بساط من ومْض
لا توقفه أرض

وهكذا.. يمضى نشـأت المصرى يصور أحلام الطفـل فى الماء حينما يرى مركبا تطفو فوق الماء.. ويأتيه خاطر مزعج:

لو أنى ضمن الركاب
لو أن المركب غرقت
ماذا أفعل يا أحباب
وأنا لم أتعلم كيف يكون العوم

ويصر الطفل على تعلم العوم بعد أن يتناول السمك المشوى الذى كان (يبلبط) طليقا فى الماء.

موقف جميل صوره الشـاعر ببساطة وعذوبة.. ونلاحظ أن الشاعرية هنا تتجلى فى الإيقاع البسـيط والقافية غير المفتعلة والتعبير السـلس.. والصورة الكلية التى رسمها لنا الشاعر والمزوجة بالقيم والسلوك الحسن.

ويطوف الشاعر فى موضوعات أخرى فيرسم لوحة فلسطينية وينوع على لحن المقاومة بقوله:

تنادى الجبال: مهند
تحيّى الحقولُ: مهند

تحب الرياح: مهند
وتحكى بطولته للوجود
وتهدى إليه الورود
وتشدو الطيور بأحلى نشيد
مهند .. مهند
شهيد وأى شهيد

ولابـد أن طفـل اليوم يعى تماما ما يدور فى فلسـطين.. ولهذا رأى الشاعر أن يشبع وجدانه بهذه اللفتة الفنية الجميلة

* * *

أما أحمد فضل شـبلول فله أيضا أكثر من عمل شعرى للأطفال مثل: أشجار الشارع أخواتى (والذى حصل به على جائزة الدولة التشجيعية) وحديـث الشـمس والقمر، إلى جانب دراسـات حول شـعر الأطفال.. ومعجم شـعراء الطفولة.. وأمامى ديوانان فى قطـر الندى هما: طائرة ومدينة.. وآلاء والبحر.. وسـأكتفى بالمرور علـى الديوان الأخير (آلاء والبحر) والذى صدر برسوم الفنان مجدى نجيب.

ونلاحظ أن الشـاعر هنا عاشـق للبحر بحكم ميـلاده وحياته على شـاطئه بالإسكندرية.. ومن ثم فإن البحر هنا يشكل محورا رئيسيا فى الديوان.. تقف آلاء أمامه محاورة طورا.. وحالة طورا آخر.. ومندهشة تارة.. ومدندنة بالموسيقى تارة أخرى.

أما الشـاعر نفسـه فنراه أحيانا يتوحد مع البحر ويتحدث بصوته ويقول:

فى كل صباح تشرق شمسى
وتقبّل صفحة مائى
يتبخر بعض الماء من الفرحة
يعلو ويلامس سقف سمائى
ويدندن بالموسيقى
ويعانق كل سحابة
ويمد يديه لقوس قزح
يرسم لوحات مائية
تشدو بالأمطار الربانية

واللافت للنظر هنا أن الشاعر استطاع أن يعبر عن الحقيقة العلمية بالشعر والصورة الطازجة لجميلة فلم نشعر إلا ونحن ندندن معه الموسيقى ونغنى بكل عاطفتنا..

حقيقة أخرى يسوقها الشاعر فى بساطة وعذوبة حين يقول:

فى منتصف الليل
يسألنى بحرى عن أطفالى
قلت: نيام
قال البحر: أمواجى لا تعرف نوما
ورمالى صادقت الغيما
وشموسى تضحك دوما
فلماذا الطفل إذا جاء إلىّ

يلعب.. يسبح
يجرى.. يمرح
ثم يعود إلى منزله يقطر نغما
وينام؟
قلت لبحرى: طفلى يصحبك إلى الأحلام
فيراك عظيما وصديقا
فى أى منام
هل تحلم أمواجك مثل الطفل
هل تحلم شطآنك بالأنغام؟

ويترك الشاعر السؤال مفتوحا أمام البحر.. ومن المؤكد أن الطفل يعرف الإجابة.. فأحلام البحر.. غير أحلام الطفل.

إننا فى هذا الديوان نرى البحر فى تحولاته ومحاوراته سواء مع الشاعر أو مع الأطفال.. ونرى أيضا كيف يصوغ الشاعر هذه الخواطر والألوان الإبداعية بريشة فنان درب وجدانه على التقاط الصورة.. والتعبير عنها ببساطة وعذوبة.

* * *

أما الشاعر يس الفيل فقد حصل على جوائز عدة عن أناشيد كتبها للأطفال.. كما كتب قصة (مدرسة الحياة) ثم أصدر ديوانه (العصافير تغنى) برسوم الفنان محمود الهندى.

ونلاحظ أن يس الفيل قد اتخذ لنفسه منهجا لا يحيد عنه فى مخاطبته للأطفال.. فهو يقف بهم على القيم الدينية والاجتماعية بأسلوب الشعر

العمودى الأصيل.. وبهذا فإن مثل هذه النصوص تصلح دائما أن تقدم فى مناهج اللغة العربية للأطفال.

وواضح أن العصافير هنا تعبير عن الأطفال الصغار.. ولهذا يقول:

أحبابنا الصغار يا بسمة النهار
يا فرحة الحياة يشدو بها الصغار
من غير ما انتظار لنقطف الثمار
قلوبنا بحبكم بحبكم عمار
أنتم لنا أمل فى رحلة العمل
حتى مع الصعاب لا نعرف الملل

ثم ينهى القصيدة بقوله:

ما أجمل العطاء يا أيها الأبناء
فضاعفوا عطاءكم حتى لمن أساء

وهكذا.. يذكرنا يس الفيل بما أنجزه الهراوى وكامل كيلانى ومن قبلهما محمد عثمان جلال.. هذا الجيل الذى ما زالت أعماله مؤثرة فى الوجدان.

وهذا الشاعر عبد المنعم عواد يوسف الذى أصدر عدة أعمال شعرية شملت قصائد وتمثيليات منها ما يقوله على لسان (الزهرة).

ما أجملنى .. ما أجملنى وأنا أبدو فى بستانى
أرقص زهوا فوق الفنن بين فريق من خلانى
أنشر عطرا فى الأرجاء أنفث سحرا فى الأنحاء

وواضح أن الشاعر هنا يقدم وصفا على لسان الزهرة يصلح لهذه السن الصغيرة التى يتصل الطفل فيها بالطبيعة وجمالها.

وهنـاك بالطبع شـعراء فصحـى كثيرون منهم مـن كتب وصمت.. ومنهم من هو مستمر وهم قلة قليلة.

وإذا كان مـن حقى أن أقدم شـيئا من أعمالى الكثـيرة.. فقد أقع فى حـيرة لأننى أكتب لكل الأعمار منذ الطفولة المبكرة إلى أخر مراحلها.. لكننى بصعوبة أختار نصا بسيط للمرحلة الأولى يقول:

طـيارتـى مـن ورق ملـون مـزوق
أرسلهـا بالخيـط إلـى الفضـاء المطلـق
فهـل رأيتـم طـائـرا محلقـا فـى الأفـق
كمـا نشـاء يقتـرب كمـا نشـاء يرتقـى

* * *

وبـين يدى عدة دواوين تعطينا نماذج جيدة للشـعر العامى.. فهذا ديوان مختارات من شـعر صلاح جاهين بعنـوان (أغنية ولد صغير).. وقد تنوعت بـين الأغنية القصيرة مثل (المصريـون أهمه) والحدوتة.. واللعبة.. والموقف التمثيلى.

وهـى اختيـارات موفقة إلى حد كبـير اختارتهـا الدكتورة زينب العسال.

وبالمثـل اختـارت أيضا لفؤاد حـداد بعض القصائـد الجميلة التى تتناسـب مـع عقلية الطفـل مثل (مصر هـى أمى) و(من صغر سـنى) وغيرهما تحت عنوان (عقد الفل والياسمين).

وأرى أن فكـرة الاختيار هذه تضيف الكثير إلى التأليف الجديد ولا مانع من إصدار أعمال أخرى لشـعراء مثل محمد عثمان جلال.. ومحمد الهراوى.. وأحمد شـوقى.. وكامل كيلانى.. وإبراهيم العرب.. وعادل الغضبان.. وغيرهم من الشعراء الكبار المعروفين الذين أضافوا الكثير إلى ساحة شعر الأطفال.

وهـا نحن أمام أعمال أخرى بالعامية نبدأها بالشـاعر عبده الزراع فى ديوانه (أراجوز فنان) برسوم شاكر المعداوى.. والشاعر صدر له عدة أعمال منها: رسمنا وردة ـ لينة مولد النبى ـ أحمد عرابى.

دعونا نقرأ له قصيدته (يا قلب النهار) يقول فيها:

وزى السنابل بنطلع لفوق
تغنى البلابل لضى الشروق
يا قطفة ميلادنا يا قلب النهار
يا ورد فى بلدنا وجناين خضار
بيطلع قمرنا وشمسك تروق
تعالوا وغنوا على كل لون
غناكم له فرحة تبان فى العيون
سفينة بتعبر برقة ونوق
باشوفكم زهور فى قلب المدارس
وروحكم تطير كمثل انوارس
وتنزل ترفرف وتطلع لفوق

وكما نرى يتمتع عبد الزراع بشاعرية جميلة.. أودعها ثقافة ومعرفة وبساطة وعذوبة.

وهو فى هذا الديوان يتخذ الإيقاعات القصيرة السريعة الراقصة وهى إيقاعات مناسبة للطفل تشيع فيه البهجة والسعادة.. فهو يقول مثلا:

أنـــا واد رســـام والـرســـم دا غـيّـه
بـارســـم فـى حمـــام بيطـــيـرع الميـــه
وجـنـاحـــه يـهـفـهـف وتـــرش عـليـــه
ودى أصـــل هـوايـتـــى

أو يقول:

يـا طالـــع المـادنـــة أدن وســـمـعـنـــا
صـــوت الأدان صاحـــى بالليـــل وصبـاحـــى
فى القلـــب ينـعـشـنـــا

ولهذا نلاحظ أن الشاعر مدرك تماما دوره فى إشباع وجدان الطفل بالنغم والمتعة ومن خلال ذلك يعطيه ما يريد من أفكار ومضامين.

* * *

أما سحر سامى فقد أصدرت فى قطر الندى ديوانها (أغنيات للشمس والعصافير) وبرسوم الفنان على دسوقى.

وقد اتخذت الشاعرة هنا أسلوب الحكى فيما قدمته من قصائد.. وهذا له دلالة عميقة خاصة لدى الأمهات.

تقول سحر سامى:

ممكـــن أحكـــى لك حدوتـــه حدوتـــة جميلـــة صغنتوتـة
حدوتـــة الديب والكتكوتـــة والبيت الأخضـــر والتوتـــة

وفى قصيدة أخرى تقول:

كنا ٣ أصحاب حلوين
نملا جيوبنا بالياسمين
نطلع عند الشمس ونقطف
ورد الضحكة العالية وننزل متفائلين

أو تقول:

قطة دخلت فوق البيت
شافت عصفورة طايره هناك
قالت: يا للا نرسم وردة على شباك

وأسـلوب الحكى مهـم جدا بالنسـبة للأطفال.. فالطفـل بطبيعته مشغوف بالحكى وبالأحداث والمغامرات مهما كانت بسيطة ومدهشة.. ولهذا فقد وفقت الشاعرة فى هذا الأسلوب إلى حد كبير.

أما الشـاعر مجـدى عبد الرحيم فله ديوانـان: «قلبى صغير توتو» و«توت حاوى توت» وكلاهما برسوم الفنانة سحر عبد الله.

وسـأتناول ديوانه (تـوت حاوى توت) حيث يحاول فيه الشـاعر إحياء الحس الشعبى فى الأغنية المصرية المرتبطة باللعب.

وهذا النـوع من الأغانى يـكاد يندثر.. ولهـذا فإعجابى بما قدمه الشاعر وبما أضافه يؤكد قدرته فى هذا المجال.

يقول الشاعر:

تـــوت حـــاوى تـــوت ســـبح فـــى الملكـــوت
يـا فتـــاح يـا عليـــم يـا رزاق يـــا كـريـــم
خلـــى لـــى أصـــحابـــى هـمـــه دول أحبـــابـــى
أحبابـــى الحلـــويـــن ليـهـم كـــل ســـلامـــى
ومـيـــت مليـــون تحيـــة

أو يقول:

حطـــه يـا بطـــه يـا دقـــن القطـــة
تـعـالـــى يـا صـــاحبـى أقـــولـــك نكتـــه
الـلـــى ح يـزعـــل يجيـلـــه زغطـــة

أو يقول:

يـا حـليـــلا يـا حليـــلا حلـــوة الدنيـــا وجميلـــة
لـمـــا نحـــب بعضـيـنـــا تـفـرح بيـنـــا أهـاليـنـــا
والمولـــى يـرضـــى علينا

وبالطبع يسترسـل الشـاعر فى قصائده استرسال تداعى المعانى بلا خطة مسبقة مما ينمى خيال الطفل ويشبع وجدانه.

* * *

وهذا عبد الناصر علام يكتب قصائده بحس الطفولة بعد أن عرفناه شاعرا للكبـار.. ففى ديوانه (يـا للا تعالوا) الذى رسمته الفنانة سـحر عبد الله.. يعرف الطفل على بعض تراثه الشعبى إلى جانب عالمه الخاص أيضا.

فهـذا بائع الدندورمه.. وأظنه قد اندثر.. لكن الشـاعر يحييه فى هـذه القصيدة ويصف عربته ذات اليدين.. ولـذة مذاق الدندورمه التى صارت اليوم (أيس كريم) فى المحلات.. فيقول:

هيصة ولة ع الدندورمه
للغلبان والنص ذواتى
كنتى زمان.. دلوقتى جيلاتى
بالعربية اللى بعجلات
ليها أيدين تمسكهم إيده
بيدلع ست الستات
الدندورمه.. لذيذة وطعمه

ويحكى لنا أيضا عن (مبيض النحاس).. وقد صار من التراث.

ثـم يتناول عـالم الطفل فى البيـت وفى مكتبه وأدواته الدراسـية وهوايـة الرسـم.. وهو فـى كل ذلك يحكى ببسـاطة وعفويـة ويتخذ الإيقاعات السريعة الراقصة التى تنمى خيال الطفل.

* * *

وأختتم هذه الدراسـة السـريعة بالشـاعر الكبير شـوقى حجاب وديوانه (صوانى البسبوسة) الذى رسمه الفنان مجدى نجيب.

وهذا شاعر من الرواد الذين أرسوا فن الشعر العامى للكبار والصغار وكتب القصيدة والمسـرح والقصة.. واتخذ لنفسـه أسلوبا خاصا تميز به يتضمـن الحس الوطنى لبلده مصر.. فهو يعشـقها ويغنى لها.. ويدعو الأطفال إلى هذا العشق بكلماته السلسة الجميلة العذبة..

يقول مثلا عن (مصر):

يا ميم محبة.. يا صاد صفا.. يا ره يا راية مرفرفـــة
يا حروف ثلاثة.. تقول يا مصر.. أنتى الطراوة والدفا
يا ميم محبة يا أمنا
يا حضن دافى يضمنا
حبك بيجرى فى دمنا
والنيل يقول يحيا الدفا

أو يقول:

وصبـاح الخيـر يـا مصـــــر
مـن كـل مكـان فـى مصـــــر
م الـنـوبـــــة نصـــــبـح.. هيـــه هيـــه هيـــه هيـــه
والنيـــــل بيفتـــــح للـــــورد عنيـــــه
أســـــمر وســـنانـــه أبيـــض وحنـــانـــه
بـيتـــــه ودكـانـــــه منـقـــوش باديـــــه
هيـــه هيـــه هيـــه هيـــه

أو يقول:

أتمنى.. أتمنى..
كل مصرى يبقى مصرى
فى كل شىء
يبقى مصرى فى خطوته فوق الطريق
يبقى مصرى فى لهفته على الصديق

بهذا العشق الخالص.. تتقاطر كلمات الشاعر وكأنها مطر يغسل كل القلوب.. ويزرع فيها كل جمال وخيال.. وكل حب وأمل.

**وبعد..**

فهذه الدراسة كتبتها لبعض الأعمال الشعرية الموجهة للأطفال.. ويضيق المقام من عرض أعمال أخرى لا تقل جودة ولا طرفة عما قدمته فى هذا البحث.

وفى النهاية لابد أن أجدد الدعوة لأصدقائى الشعراء من كل الأجيال لكى يمتعوا أطفالنا بأشعارهم الجميلة سواء بالفصحى أو العامية.

* * *

## أغنية الطفل بين المحلية والعالمية
## رؤية للمستقبل

هناك حقيقتان مؤكدتان:

الحقيقة الأولى: تؤكد أن تاريخ الأدب العربى يقسم الشعر إلى لونين شعر تقليدى ويشمل أغراض المديح والهجاء والبكاء على الأطلال وغير ذلك.. وشعر غنائى – أى يصلح للغناء – وهو شعر الغزل.. وشعر المدائح النبوية.. والشعر الذى كتب للأطفال.

الحقيقة الثانية: فتؤكد أن العرب قوم اشتهروا بحبهم للغناء.. كانوا يغنون من المهد للحد.. يرقصون أطفالهم بالغناء.. يحيون أفراحهم وينوحون على موتاهم بالغناء.. يتعبدون.. ويستقون ويشيدون بيوتهم بالغناء..

وقد عبر القرآن الكريم عن حبهم هذا فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.. والمكاء هو الصفير.. أما التصدية فهو التصفيق.

كما أن الرسول الكريم أشار إلى ذلك بصراحة ووضوح حين قال: {ما بعث الله نبيا إلا كان حسن الوجه.. حسن الصوت}. رواه الترمذى فى شمائله.

هاتان الحقيقتان تنيران لنا الطريق إلى عالم الطفل والغناء.. وتعتبر الموسيقى حلقة الوصل التى تصل وتتغلغل فى عالمى الشعر والغناء معا

وحينما نقترب فى إخلاص من وجدان الطفل.. نكتشف أنه يولد مزودا بحاسة خاصة يدرك بها ما فى الأعمال الفنية من جمال وسحر ومتعة.

فالطفل فى سنواته الأولى مرهف الحواس.. وربما كانت حاسة لديه أرهف هذه الحواس جميعا.. إذ يتلقى - تلقائيا - مجموعة متباينة من الأصـوات لا تقع تحت حصر.. وهو لا يزال فى مهده الصغير غير قادر على الإدراك البصرى لمن حوله.

وأول صوت يدركه الطفل ويتبينه هو صوت الأم خاصة حينما يبكى وتندفـع إليه أمه تهز مهده الصغير فى حنان وفى شـفتيها موسـيقى صادرة من قلبها تنسجم مع يقاعات هذا المهد الصغير.

إن الصغـير هنا يدرك بأذنيه صوت أمه المنغم.. فيكف عن البكاء.. ويبتسم حيث يحس بالأمان حين يدى أمه.. وهذا المران السمعى هو الذى يعد الطفل فى سـنواته الأولى للتمييز بين الأصوات المنسجمة.. ولتلقى الكلام الموزون على إيقاعات موسـيقى فى سـعادة وسرور.. ونلاحظ أن الطفل سرعان ما تستغرقه الموسيقى.. فيرقص عليها ويغنى كلماتها.

والنغم الشـعرى فى جوهره تناسـق بين عالمى الكلمة والموسيقى.. وهو قريب من مشاعر الطفل الداخلية المنسجمة.. ويمكن أن نلاحظ تلك الاسـتجابة عندمـا نطالب الطفل - مثلا - بتركيـب أجزاء مفككة فى لعبته المفضلة.. بحيث تأخذ شكلا منسجما.. إن الطفل هنا لا يلبث بعد مـران قليل.. أن يكون تلك الأجزاء المتناثرة فى شـكل (منغم منتظم).. ينظمه إيقاع نفسى وفنى.. لأنه وافق مشاعره الداخلية.

أدرك الإنسان قديما وحديثا هذه الحقائق الجميلة وهو يتعامل مع الطفل.. وظهر فن ترقيص الأطفال لدى جميع الشعوب.. ولدى العرب كذلك.. ويطلق عليه أحيانا: أغانى المهد.. أو أغانى الطفولة.. ومن ذلك مثلا ما قاله أعرابى يرقص ابنته:

كريمة يحبها أبوها مليحة العبنين عزبا فوها
لا تحسن السب وإن سبوها

وهذه أم تتكئ على ترقيصة عذبة لابنتها الصغيرة لتقول من خلالها شيئا لزوجها.. فقد روى أن أعرابيا يدعى أبا حمزة الضبى كان قد هجر امرأته.. لأنها لا تلد الذكور.. فكان يقيل عند بعض الجيران.. ومر الرجل يوما بخباء امرأته فوجدها ترقص ابنتها بهذه الكلمات التى رققت قلبه.. فدخل البيت بعدها وقبل رأس امرأته وابنته وعاد إلى بيته.. وكانت امرأته تغنى وتقول:

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا تالله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

وكتب الأدب حافلة بمثل هذه النماذج التى تميزت بسهولة الإيقاع.. وبساطة التعبير. والقصد المباشر إلى المعنى دون تعقيد أو غموض.

وهناك غرض آخر قديم ارتبط بلعب الطفل.. وسمى بأغانى الألعاب أى تلك الأغنية التى كان الأطفال يغنونها وهم يلعبون.. ليزدادوا متعة باللعب.. وقد تكون اللعبة نفسها تؤدى إلى إيقاع الأغنية.

كمـا أننا لا نزال نردد ونسـتمع إلى (طلع البدر علينا) تلك الأغنية التى شارك فيها الكبار والصغار وهم يستقبلون الرسول (ﷺ) بمناسبة الهجرة من مكة إلى المدينة.

هكـذا كان العرب يرقصـون أولادهم.. وهكـذا كان الأطفال يغنون ويلعبون.. فماذا عن الغناء والطفل المعاصر؟

إن عوامل كثيرة قد اختلفت وتغيرت.. فقد تعددت الوسائل الثقافية والإعلامية التى توجه للطفل.. لقد صار للطفل كتابه.. وجهاز تسجيله.. ولعبته المفضلة.. وحفلاته الغنائية سواء فى المدرسة أو لدى أصدقائه.. أصبح له عالم خاص.. قد يشارك فيه الكبار وقد لا يشاركون.. ومن يقرأ تلك النصوص التى قررها المسئولون فى التربية والتعليم على صغارنا.. يقع فى حيرة شديدة.. فهى نصوص تعليمية بحتة.. خالية من الثقافة العامة.. مقيدة بأغلال الرؤية الضيقة لواضعى هذه النصوص.. حتى إن الصغار كثيرا ما يضيقون بها.. ويبحثون فى المكتبات عن تلك النصوص التى توسع مداركهم.. وتنمى خيالهم وتكسبهم المتعة النفسية.

وأعتقد أن الطفل الصغير فى مجال الشـعر والغناء يحتاج إلى عناصر فنية ولغوية وثقافية خاصة منها:

١- السـهولة فى المبنى والمعنى بحيث تكون الكلمات مسـتمدة من قاموس الطفل وحديثه المتداول سواء أكانت فصحى أم عامية.

٢- الإيقاع النغمى البسـيط غير المعقد.. ليسهل ترديده والاستمتاع به.. ويستحسن استخدام مجزوءات البحور الشعرية الصافية.

٣- اختيار الموضوع أو المضمون الذى يتلائم مع عقلية الطفل ووجدانه.. ومن ثم علينا أن ننظر إلى الطفل على أنه كيان صغير لرجل كبير.. وليس هو ذلك الكائن المدلل الغبى الذى نتحسس الطريق إليه فى صعوبة.

٤- مراعاة مقدرة الطفل على الحفظ والاستيعاب.. ومن ثم لا تزيد الأغنية أو القصيدة عن أبيات قليلة.

٥- الجمع بين الحكمة والمباشرة.. والفكرة غير المباشرة.

٦- محاولة تقريب الطفل إلى عالمه المحيط المحسوس وغير المحسوس.. عن طريق طرح مضامين تتعلق بالسلوك والعادات ومحبة الوالدين والأصدقاء.. والتعامل مع الطبيعة والحيوان.. والتعود على أداء العبادات.. وغيرها.

ويجب أن نلاحظ أن هذه العناصر والأفكار ليست جامدة أو حادة.. ولكنها تمثل رؤية عامة تحاول أن تحيط باحتياجات الطفل النفسية والثقافية والفنية.

## مشكلة اللغة:

فى مجال التعامل اللغوى مع الطفل.. نختلف دائما على المستوى اللغوى الذى يجب أن تكون عليه لغة الخطاب.

وفى مجال الأغنية نختلف أكثر.. ربما لأن السائد فى هذا المجال - حتى لدى الكبار - هى اللهجة العامية.

ولن أكون جامدا فى مناقشة هذا الأمر.. لكننى على يقين من أن أهم أسس الهوية العربية والثقافة العربية.. هى اللغة الفصحى.. وقد

أواجه بمن يسألنى عن هذا الطفل الصغير الذى لا يمتلك قاموسا من الفصحى.. كيف نخاطبه بالفصحى.. وأغلب الظن أن الأمر يحتاج منا إلى مناقشة هادئة.. وأبادر فأقول أن اللغة العربية من أغنى لغات العالم لاحتوائها على مفردات ومترادفات كثيرة للمعنى الواحد.. وهذا إلى جانب الثراء.. فإن العربية تشمل مستويات لغوية متعددة تتراوح بين البساطة والتعقيد.

ومن ثم فأنا أؤكد أن العيب ليس فى اللغة وإنما فى الذى يستخدم اللغة.. وكاتب الأطفال ينبغى أن يحيط بالعربية إحاطة واعية كبيرة. وإذا هو تمكن من ذلك يستطيع ببساطة ودون معاناة أن يختار المستوى اللغوى الملائم لأى مرحلة عمرية أو عقلية عملا بالحديث الشريف: {خاطبوا الناس على قدر عقولهم}.. فإذا تحقق ذلك أمكننا أن نخاطب الطفل فى أى مرحلة عمرية بالفصحى دون أن نستشعر أى صعوبة.

واسمحوا لى أن أسوق لكم بعض الأمثلة التى تؤيد وجهة نظرى فى هذا المجال وهى محاولات أبدعتها بمتعة وأحسبها قد وصلت إلى وجدان الصغير فى مرحلته المبكرة دون أى صعوبة

كُوكْ.. كُوكْ.. كُوكْ  هَذَا صَوْتُ الدِّيكْ
يشْدُو كُلَّ صَبَاحْ  حَتَّى عَلَى الفَلاَحْ
طلَعَتْ شمْسُ اليَوْمْ  فَوَدَاعا للنَّوْمْ

* * *

عِيـــدُ ميـــلاَدِى غـــــدَا زِدْتُ عَامـــــا وَاحِـــــدَا
زِدْتُ عَقْـــــلا وَخَيـــــالاَ وَجَـمَـــــــالا وَدَلاَلاَ
هَـكَـــــذَا قـــالَ أبِـــى حَامِـــلاَ لِـــى لُعَبِـــى

* * *

صـــلواتى خمس فى اليـــوم من ســـاعة صـــحوى للنوم
شـــكرا لله علـــى كرمـــه حـمدا لله علـــى نعمـــه
لا أتـــــرك أبدا صـــلواتـــى صـــارت من أجمـــل عاداتى

* * *

لِـــى كُـــرَةٌ مُـــلَوَّنَـــةْ جَـمِيـلَـــــةٌ مُـزَيَّنَـــــةْ
تَطِيـــرُ فِـــى الفَضَـــاءِ تَعُـــومُ فـــوقَ المَـــاءِ
أَلْعَـــبُ مَـــعَ أَصْـــحَابِى بِأَجْمـــلِ الأَلْعَـــابِ

* * *

أختـــى ســـلـــوى معـهـــا حـلـــوى
ومعـــى مـــوز ومعـــى جـــوز
هـــى تـعطينـــى وأنـــا أعطيهـــا

* * *

إذا صعدنا قليلا مع الطفل إدراكا وخيالا.. نقول له:

طـــيارتـى مـــن ورق ملـــون .. مـــزوق
أرسلهـــا بالخيـــط إلـى الفضـــاء المطلـــق

فهل رأيتم طائرا محلقا في الأفق
كما نشاء يقترب كما نشاء يرتقي

* * *

لي جار مكفوف محبوب وألوف
يحكي لي أخباره والقصص المختارة
وله صوت حسن تنعم فليه الأذن
جاري ما أطيبه أرضى أن أصحبه

* * *

في شرفتي حديقة جميلة أنيقة
تمنحني الجمالا والسحر والخيالا
وزهورها جميلة غصونها طويلة
أحب أن أرعاها دوما ولا أنساها

* * *

في لياليها القمر راحل لا يستقر
أول الشهر هلالا قوس ضوء وظلالا
ثم يزداد استدارة وجمالا ونضارة
حينما يطلع بدرا يملأ العالم سحرا
رحلة الليل البهية للشهور العربية

* * *

إذن كلما ازداد الطفل إدراكا.. كلما ازداد قاموسه اللغوى.. وخياله

واستيعابه للمعنى.. ولا يجد الشاعر صعوبة فى الوصول إليه عن طريق الشعر والغناء.

## أشكال الأغنية:

أغنية الطفل لها أشكال مختلفة متعددة منها:

١- أغنية قصيرة ذات أبيات قليلة تتضمن معنى واحد.

٢- أغنية متوسطة يتسع فيها المعنى قليلا.

٣- أغنية ضمن عمل فنى كبير مثل المسرح أو التمثيلية أو المسلسل أو الأوبريت.

وأعتقد أن الفصحى والعامية هنا ليست المشكلة لكن المشكلة تكمن فيما يقدمه النص الغنائى لهذا الصغير.. بحيث يستطيع أن يستوعبه ويتفاعل معه، ويغنيه ويرقص عليه ويلعب به أيضا.

## المحلية والعالمية:

لا شك أن هذه القضية تثار بين يوم وآخر.. وهى كيف نصل بأعمالنا إلى العالمية وأعتقد أن مفهوم العالمية ليس فقط فى ترجمة العمل إلى لغات أخرى فقد نترجم عملا لكنه لا يجد مردودا أو ترحيبا أو صدى جيدا لأننا أسأنا اختيار النص المترجم.. ومن ثم فهناك شروط فى النص المراد ترجمته إلى اللغات الأخرى أهمها:

١- التمسك بالهوية المحلية.. وليس أدل على ذلك من فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل لأنه استطاع أن يصور مجتمعه المحلى تصويرا جيدا..

والسر فى ذلك يكمن فى أن الحضارة الغربية لها معطياتها ورؤاها الخاصة.. وحينما نحاكيها بعمل مماثل.. ينصرفون عنه إلى ما هو أصيل فى بيئتهم.. من أجل ذلك كانت المحلية والهوية الخاصة أولى الخطوات إلى العالمية.

٢- الحرص على سلامة التعبير ودقته لغويا.. ليسهل ترجمته إلى اللغات الأخرى.. بعد الاستماع إليه فى لغتنا.

٣- تقديم الأغنية بإيقاعات عربية وشرقية صحيحة.. ولا شك أن موسيقانا تعتبر من الثراء بحيث يمكن بها جذب الأذن مهما اعتادت هذه الأذن على إيقاعات أخرى.

٤- الحرص على المضامين الخاصة ببيئة الطفل العربى والتأكيد عليها أمام زحف معطيات البيئات الأخرى.

٥- البعد عن التقليد والمحاكاة والبدع بدعوى التحضر والعولمة.

## آفاق المستقبل:

علينا أن نتساءل هنا لماذا يقبل أطفالنا وشبابنا على إيقاعات الأغنية الأجنبية حتى لو لم يفهم معنى كلماتها.

إن إيقاعات هذه الأغانى تتميز بالسرعة التى قد تصل أحيانا إلى الدوران والغياب عن الوعى.. فهل هذا يناسب مجتمعنا؟

إن الأمر يستحق نظرة موضوعية تجمع بين إيقاع العصر.. وما تتطلبه الحياة فى البيئة العربية.

ولأن الموسيقى هى غذاء الروح وهى تمثل الوعاء الفنى الذى تصب فيه كلمات الأغنية.. فإن ما ينبغى علينا أن نحرص عليه.. هو تطوير

الموسيقى العربية.. لا لتصير مثل الموسيقى الغربية.. وإنما لكى تتسع لضامين العصر.. ولكى تشبع رغبات الصغير فى الاستمتاع باللحن الذى يحمل الكلمة المعبرة.

إن مستقبل الأغنية المقدمة للطفل تتطلب من تصورنا عدة شروط لكى تكون لها شخصيتها الخاصة:

١- نص عربى سليم يحترم عقلية الصغير فى مراحل عمره المختلفة.. بلغته العربية الجميلة يجعله يتذوق الكلمات والمعنى.

٢- لحن بسيط ذكى الإيقاع. يتناسب مع أجهزة وعى الصغير التى تتسم بالبساطة والتلقائية.

٣- صوت محبب للأطفال لديه القبول الحسن.. وهو قادر على تجسيد المعنى.. والأداء الجيد.

إن حرصنا على مثلث العمل الفنى هذا إلى جانب عدد آخر من المفردات التى تتعلق بالهوية العربية.. سوف يضمن للأغنية العربية المقدمة للطفل آفاقا مستقلة مضيئة منافسة لأية أغنية أخرى.. وكثيرا ما نقرأ عن فوز الأغنية العربية على المستوى العالمى.. لماذا.. لأن الإيقاعات العربية بالنسبة للمستمع الأجنبى تمثل له تنوعا مختلفا وإضافة جميلة إلى تذوقه.

ومجمل ما نريد أن نصل إليه.. أن إبداعنا للطفل شعرا أو نثرا لا يقل عن إبداع الآخرين.. وينبغى ألا نقلل من أهميته الفنية وتأثيره على الوجدان المحلى والعالمى.

ولن تتحقق الآفاق فى المستقبل بغير الثقة بأنفسنا.. وبقدرتنا على العطاء.. وبذكاء أطفالنا.. وبجدية مراكز البحث فى بلادنا.. وبالتأكيد على أن كل شيء جميل يبدأ بالطفل.

* * *

## روايات الناشئة
## الواقع والمأمول

وقد توقف الباحثون أمام تراث الحكم والمواعظ التعليمية لدى الحضارات القديمة.. كما يذكر التاريخ تلك الكتب التى كتبت للصغار باللاتينية فى القرن السابع.. ومن قبل ذلك بمئات السنين وجدت رسائل الآباء إلى الأبناء كما وجدت تعاليم ونصائح الحكماء للأبناء.. وتقاسم التعبير عنها الشعر والنثر ولعبت دورا خطيرا فى تكوين شخصية الصغير.

وإلى جانب ذلك اللون من الكتابة وجدنا القصة الخرافية.. والحكايات الخيالية المتنوعة.. كما وجدنا الأناشيد والأغانى وبعضها صاحب الألعاب التى يمارسها الأطفال على إيقاعات الموسيقى البسيطة.

ويمثل اختراع الطباعة فتحا كبيرا فى انتشار الكتاب والوسائل التعليمية والتثقيفية بصفة عامة.

فالكتابة للطفل إذن ليست حديثة العهد.. وإن كان الاهتمام بها يعود إلى منتصف القرن الثامن عشر.. ويعد المؤلف الناشر جون نيوبرى (١٧١٣م - ١٧٦٧م) أول من أصدر كتبا للأطفال مصورة على ورق ممتاز فى إنجلترا.. وفى سنوات ذلك القرن كذلك ينادى الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو (١٧١٢م - ١٧٧٨م) بآراء جديدة فى التربية فى إطار

(الإنسان الطبيعى).. فيرى أن نترك للطفل فرصة تنمية مواهبه الطبيعية دون أن تعطلها مؤثرات الحضارة الفاسدة.. وهدف التربية لديه هو أن يتعلم الإنسان كيف يعيش.. وكيف يمارس حياته بحرية كاملة.

ويشهد القرن التاسع عشر اهتماما آخر بكتب الأطفال على يد هانز كريستيان أندرسون فى الدنمارك (١٨٠٥م - ١٨٧٥م).

ولا شك أن الطرف الآخر من العالم قد سبق الشرق إلى التقاط الخيط وكتابة أدب الأطفال المعاصر.. على أيدى لافونتين وحكاياته الخرافية (١٦٢٠م - ١٦٩٦م).. والأخوين جريم فى ألمانيا.. وخوان رامون خمينيث فى أسبانيا.. ووليم بليك وإداور لير.. وهوفمان فى مجال الشعر ولويس كارول فى كتابه (أليس فى بلاد العجائب) وغيرهم.

أما فى الشرق العربى فقد بدأ رفاعة الطهطاوى (١٨٠١م - ١٨٧٣م) محاولته التعليمية فى كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين).. ثم الشاعر محمد عثمان جلال (١٨٣٨م - ١٨٩٨م) فى كتابه (العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ).. وأحمد شوقى (١٨٧٠م - ١٩٣٢م) فى شوقياته الجزء الرابع.. وعبد الله فريج الذى أصدر عام ١٨٩٣م كتاب (نظم الجمان فى أمثال لقمان).. ومحمد الهراوى (١٨٨٥م - ١٩٣٩م) الذى انصرف بجهد وإخلاص إلى شعر الأطفال.. وكامل كيلانى (١٨٩٧م - ١٩٥٩م) رائد أدب الأطفال والذى يرجع إليه الفضل فى كتابة القصة العربية للأطفال واستطاع أن يمد الطفل بأول مكتبة عنيت بتنشئته على أسس التربية الصحيحة فألف وترجم.. وبسط كثيرا من الأعمال وكتب

الشعر.. وإبراهيم العرب الذى أصدر كتابه (آداب العرب) عام ١٩١١م يتضمن تسعا وتسعين قصة شعرية منها ما هو على لسان الحيوان.. والرصافى ومحمود غنيم وعادل الغضبان.. وغيرهم.

ثم يأتى جيل أخلص فى كتابة القصة منهم: عبد التواب يوسف وأحمد نجيب ويعقوب الشارونى وجمال أبو رية.. ويظل ما قدموه إلى ساحة الأطفال إضافة حقيقية معاصرة للطفل العربى.. فتحت له النوافذ على تراثه وثقافته وثقافة الغير كذلك.

ثم يأتى جيل آخر تتعدد إبداعاته للطفل بين الثقافة العامة والخيال العلمى والقصة والشعر.. فى محاولات جادة للحاق بالعصر ومتغيراته.

ومن خلال الإبداعات المختلفة منذ وجد أدب الأطفال يمكننا تصنيف الاهتمامات الرئيسية فى الكتابة فى عدد من المحاور والألوان الإبداعية أهمها:

- كتب الأطفال الصغار وهى تقدم للمرحلة الباكرة من العمر.. وتتميز بالسهولة لمن يتعلمون القراءة.. وكثرة الصور والرسوم.

- القصص الخيالية وهى روايات أو قصص طويلة.. تعنى بالموروث الشعبى لدى الشعوب المختلفة وفى عالمنا العربى يمكن أن تكون مصادر هذه القصص فى حكايات ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والأساطير الشعبية والسير.. والحكايات المتوارثة وترجمات مبسطة للأدب العالمى.

- السير والتراجم.. أى تناولت شخصيات القادة والأبطال والشخصيات التاريخية المختلفة.

– القصص الدينى المستلهمة من التوراة والإنجيل والقرآن وهى مملوءة بالمواقف والقصص الإنسانية والدينية وسير الأنبياء..والمثل العليا.

– الرحلات وجغرافيا البلاد.

– التاريخ مصدر من مصادر الكتابة.. وكيف نقدمه فى صور حكايات ومواقف بعيدا عن جفاف المادة.

– الخيال العلمى.. وهو يجسد أحلام الإنسان فى البر والبحر والفضاء.

– القصص العلمى المبسط والذى يشمل العلوم البحتة والجيولوجيا والتاريخ الطبيعى وعالم الأحياء.

– المهارات اليدوية والتى تقدم الصناعات اليدوية ببساطة.

– الشعر بكل ألوانه وقوالبه.. سواء فى صورة المقطوعة الشعرية القصيرة.. أو الحكاية الشعرية أو المسرحية الشعرية.

– التأليف الأدبى الذى يعتمد على الإبداع الخالص ولا يعتمد على مادة سابقة أو مصدر قديم.

تلك هى أهم الألوان الإبداعية فى الكتابة للأطفال..

والآن وأمام تلك الحقيقة التى تؤكد أن العالم العربى يبلغ تعداد أطفاله ٤٠٪ من سكانه أى ما يقرب من ١٣٠ مليونا من المواطنين العرب.. يقل سنهم عن ١٨ سنة.. ترى ماذا نقدم لهم من مادة تصلح لتثقيفهم.. أمام أجهزة الكمبيوتر وعصر المعلوماتية والعولمة.

إن نظرة فاحصة لما يقدم اليوم فى الساحة العربية لأطفالنا ليؤكد أننا أمام مسئولية كبيرة فى تربية هذا الجيل الذى سوف يتولى مسئولية وطنه فى القريب العاجل.

وتتجلى تلك المسئولية فى التركيز على بعض القيم التى ينبغى أن تدور حولها الإبداعات الأدبية منها:

- تنمية وتقوية الشعور بانتماء الطفل إلى وطن عربى واحد ولن يتحقق ذلك بدون وعى المؤسسات المعنية والكتاب بتكوين ثقافة تاريخية قومية قوامها اللغة العربية والدور التاريخى العربى فى الحفاظ على القيم الإنسانية.

- تنمية طاقات الطفل ليصبح قادرا على تطوير مجتمعه.. ولن يتحقق ذلك بدون التطوير فى مناهج التعليم.. ومزج البعد الثقافى بالبعد التعليمى والتعرف على ثقافات العالم.

- تشجيع الابتكار والنقد لدى أطفالنا.. بحيث نربى فيهم قيمة الإنسان.. والبحث عن الجديد.. والنظر إلى العالم الخارجى باعتباره إضافة إلى ثقافة.. ومن ثم يساعد ذلك كله على تنمية خيال الطفل ليكون خلاقا متذوقا فاعلا.

إننا فى حاجة اليوم ليس إلى عدد كبير من الكتاب بقدر ما نحن بحاجة إلى كاتب حقيقى مخلص لديه معرفة بسيكولوجية الطفل الذى يكتب له.. ولديه ثقافة واسعة دقيقة.. ولديه معرفة عميقة بفن الكتابة وعناصر التشويق والخيال.

كمـا إننا فى حاجة إلى ثقافة علمية معاصرة تواجه وتواكب ثقافات العالم اليوم.

إن (سوق) الكتابة للأطفال يحفل بطوفان من الكتب والمواد التثقيفية.. لكننا لا نستطيع أن نسلم بها جميعا بأنها صالحة لطفل اليوم.

فكاتـب الأطفـال ـ اليوم ـ ينظر إلى هذا اللون مـن الكتابة على أنه أسهل من الكتابة للكبار.. وهذه نظرة قاصرة..

فالكتابة موهبة قبل كل شئ.. فإذا كانت الموهبة تنضج وتنمو بالعلم والخبرة فإنها ضرورة بالنسـبة لكاتب الأطفال الذى لابد أن يتمثل فى تكوينه الثقافى والنفسى عوامل كثيرة من أهمها فهم سلوك ونفسية هذا الطفل الصغير الذى يكتب له.. ومن ثم تحدد المشكلة فى:

من الذى يكتب للأطفال؟

وماذا يكتب؟

وبأى لغة يكتب؟

وللأسف نجد اللغة الفصحى تشكل عقبة أمام بعض الكتاب بالرغم من أنهـا لغة ثرية المترادفات والمرادفات.. بل تتعدد مسـتوياتها بين البساطة والتعقيد.. فمن يقبض على لغته قبضا جيدا يستطيع أن يختار المستوى المناسب لأى مرحلة عقلية دون صعوبة.

إن ندرة الجودة فـى الكتابة للأطفال جاءت نتيجة النظرة القاصرة لهذا اللون من الكتابة بأنها أمر يسـير يستطيع أى كاتب أن يمارسه.. وتلك الخطورة التى نحس بها كثيرا فى إنتاج الكتابة للأطفال.

كما أن كثرة الناشرين والمؤسسات التى تعنى بثقافة الطفل تفتقد إلى استراتيجية تجمع بينها بحيث تضع تصورا للمستقبل فى هذا اللون من الكتابة بحيث لا تتكرر المضامين.. ولا يتركز على المترجمات والقوالب الجاهزة.. وتراعى عددا كبيرا من القيم الثقافية والاجتماعية والعلمية المعاصرة.. إنها إذن استراتيجية مفتقدة.

وبرغم وجود جهود مخلصة فى مجال الكتابة بألوانها المختلفة فإن مجتمعا عربيا له تاريخه الأدبى واللغوى والعلمى والدينى لا يجوز أن يقتصر على هذه الجهود فحسب وإنما نحن فى حاجة دائمة إلى مزيد من الجهود والإخلاص لهذا الكائن الصغير الذى يبدأ به كل شىء: الثقافة والعلم والمعرفة....

كما نؤكد أن غياب حركة نقدية خاصة بالكتابة للأطفال تفتح الباب على مصراعيه لهؤلاء الكتاب الذين لا يتسلحون بالموهبة وأدوات الإبداع فى هذا المجال الحيوى.. ولا أدرى متى يظهر ناقد مخلص ينظر إلى هذا الطوفان ويضعه فى مصفاة حقيقية من أجل أطفالنا الصغار..

## تراث روائى للناشئة:

نحن الآن أمام شريحة عمرية تتطلب حساسية شديدة فى التعامل معها وهى المرحلة التى تبدأ من ١٢ إلى ١٨ عاما والتى اصطلح على تسميتها مرحلة (الناشئة).

وإذا عدنا إلى معاجم اللغة لتحقيق هذا المسمى.. نجد أكثر من مادة قد تجتمع وتختلف.

ففى لسان العرب نستطيع أن نلتقط هذه المفردات:

- الحدث: هو الشاب فتىّ السن
- الصبى: من لدُنْ يولد إلى أن يفطم.. أو هو الغلام
- الصّبا: الصغر فى السن
- الفتى: الشاب أول شبابه بين المراهقة والرجولة
- الناشئ: هو فويق المحتلم أو هو الحدث الذى جاوز حد الصغر.. ومن بلغ الحلم فجرى عليه حكم الرجال

هذا ما قالته المعاجم اللغوية.. فماذا عند علماء النفس..

تكاد تجمع كثير من المراجع الموثوقة أن الحدث أو الناشئ أو الفتى هو من لا يزال فى دور التذبذب والتغيير ولم يصل بعد إلى حالة الثبات أو (النضج) وتنتهى هذه المرحلة فى سن الثامنة عشرة.

ومن ثم تتوافق معاجم اللغة مع آراء علماء النفس.. حيث تقول المعاجم إن الناشئ (فويق المحتلم) أى إنه فى مرحلة التذبذب والتغيير.

لهذا كانت هذه المرحلة مهمة لأنها مرحلة تكوين العقل وتثقيفه والوصول إلى النضج.

والسؤال هنا ماذا نقدم لهذه المرحلة من أعمال إبداعية تساعد أصحابها إلى الوصول إلى المعرفة.

يقسم بعض الباحثين الأعمال الروائية الموجهة لهذه المرحلة إلى عدة أنواع أهمها:

١- القصص الخيالى:

وهى حكايات ألف ليلة وحكايات الحيوانات وعالم الجن والأساطير والسحر والخوارق.

٢- قصص المغامرات:

وهـى القصص البوليسـية التى تدور حول الجرائـم وتتضمن عقدة الجريمة وحلها.

٣- القصص المترجمة:

وهى روايات عالمية مترجمة مبسطة إلى اللغة العربية.

٤- القصص العلمى:

وهـى التى تدور حول حدث علمى أو اكتشـاف أو اختراع وقع فى عصر من العصور.

٥- قصص الخيال العلمى:

وهى قصص تمزج بين الحقائـق العلمية والخيال وتدور فى الفضاء والبحار.

٦- القصص الدينى:

يتناول سير الأنبياء وقصص القرآن والكتب السماوية.

٧- القصص التاريخى:

يتناول الأحداث التاريخية والشخصيات والأبطال فى قالب روائى.

ومهمـا اجتهـد الباحثـون فى وضـع تصنيفات مختلفـة للأعمال الإبداعيـة الروائيـة.. فإن هـذه المرحلة يمكن أن تسـتوعب كل ألوان المعرفة بلا استثناء إلى جانب الأعمال الإبداعية..

والآن دعونا نقف على أهم علامات التراث الروائى الذى حاول الكتاب تقديمه لهذه المرحلة.. ونبدأ بأشهر الأعمال على الإطلاق وهى سلسلة (أولادنا) التى بدأ صدورها عن دار المعارف فى عام ١٩٤٧م برواية (عمرون شاه) وقد جاء فى صدر هذا العدد الأول هذه الكلمات:

( لعل القصة هى أول ما يسترعى عناية المربين لأنها الدرجة الأولى من سلم المعرفة فتختلف غاياتها وأساليبها باختلاف مراحل التعليم التى يمر بها أولادنا.. والمكتبة العربية على ما فيها من نفائس القصص الصالحة للنشء لا تزال مفتقرة إلى المزيد من عناية الأدباء والمربين فاستخرنا الله فى ملء جانب من جوانب هذا الفراغ وأنشأنا هذه المجموعة بعنوان (أولادنا).. وعنينا فى هذه المجموعة بأن تكون ـ مؤلفة كانت أم مترجمة ـ نعم المهذب والمربى يقرؤها الفتيان والفتيات وعهدنا إلى حضرة المربى الكبير محمد فريد أبو حديد عميد معهد التربية فى الإشراف عليها) مارس ١٩٤٧م.

وتحمس الجميع آنئذ بالإسهام فى الترجمة والتأليف كان فى مقدمتهم الكاتب الكبير عادل الغضبان.. وتراوحت الأعمال بين أعمال تراثية ميسرة مثل: (عمرون شاه – كريم الدين البغدادى – كنوز الملك سليمان – العم نعنان – مملكة السحر – نبوءة المنجم).

وأعمال معربة لكبار الكتاب العالمين مثل: (آلة الزمن – كتاب الأدغال – بينوكيو – دون كيشوت – سجين زندا – مون فليت – تيودورا – أليفر تويست – حصان طروادة – كوخ العم توم – سمير أميس – دافيد كوبرفيلد..).

وأعمـــال مؤلفـــة مثل: (عودة المحـــارب ـ الطفلـــة المدلّلة ـ الأرض الغامضة..وغيرهـــا) ولقـــد تربى على هذه المجموعـــة أكثر من جيل.. ولعبت دورا فى تثقيفه وتهذيبه وتغذية عقله ووجدانه.

أمـــا كامل كيلانى فـــكان له أيضـــا دوره الرائد فى هـــذه المرحلة.. والمراحل السابقة عليها حتى إن الشاعر أحمد شوقى حياه بقوله:

يا كامل الفضل قد أنشأت مكتبة ... يســـير فى هديها شيبٌ وأطفالُ
جمـــال طبعك حـلاها وزيّنها ... فأصبحت بجميل الطبع تختـــال

ويقول عنه خليل مطران:

( لقد عنى بتغذية عقول الأطفال وتهذيب أخلاقهم وتقويم ملكتهم على العربية الصحيحة.. فألف واقتبس لهم قصصا بين صغيرة وكبيرة نيَّفت كراريســـها وكتبها على الأربعين.. ومن حداثة ســـنهم إلى إقبال الصبا بل إلى شرخ الشباب فأتى فى سرده بكل شئ مفيد وممتع وقيم ).

وقد حرص كامل كيلانى على تقديم أكثر من سلسلة لهذه المرحلة أهمها:

– أشـــهر القصص: وقدم فيها روبنسن كروزو.. ورحلات جلفر فى أربعة أجزاء.

– قصـــص شكســـبير وقدم فيها أربع قصص هـــى: العاصفة – تاجر البندقية – يوليوس قيصر – الملك لير.

– أساطير العالم: وقد طاف العالم القديم وقدم لنا أشهر أساطيره.

– قصص عربية: وقدم فيها عشر قصص طويلة.

– قصص هندية: وقدم فيهـــا نحو ثمانى قصص طويلة عن عجائب وغرائب وأساطير الهند.

وواضح من هذه الأعمال أن كامل كيلانى كان عينه على عقل الفتيان وكيف يزودهم بالمعرفة العالمية والتراثية بأسلوب سهل ممتع يتناسب مع عقلية الفتى ووجدانه.

وتبدأ دار المعارف أيضا بتقديم سلسلة مغامرات للناشئة بعنوان (قصص بوليسية للأولاد) والمعروفة بالألغاز وكانت تصدر شهريا وتقدم روايات عن الجرائم والمغامرات بأسلوب ممتع ورسوم معبرة.. وقد شارك فى كتابتها عدد كبير من المبدعين منهم: محمود سالم - عبد الرحمن حمدى - عصمت والى ـ رجاء عبد الله - هدى الشرقاوى - مصطفى أحمد مصطفى - مجدى صابر.. وآخرون.

أما سلسلة المكتبة الخضراء التى تصدر عن دار المعارف أيضا فقد حددت رسالتها بقولها: (روائع من القصص.. تتألق بالخيال والفتنة لناشئة الأقطار العربية فيجدون فيها ما يناسب خيالهم.. ويساير أرواحهم وتطلعاتهم فى إطار التعبير الجيد والحروف المشكولة والإخراج الفنى المزين بالرسوم واللوحات الملونة). وقد تراوحت الأعمال المقدمة فى المكتبة الخضراء بين التعريب والتأليف وأسهم فيها كتاب كثيرون.

وهنا أتوقف بأسى وحزن لأقول إن دار المعارف فى السنوات الأخيرة قد تراخت فى إصدار الجديد من سلاسلها للأطفال والناشئة وتناسى المسئولون فيها أن كتبها هذه قد تربى عليها أجيال وأجيال.. وتغذت عليها عقول أسهمت فى تقدم الوطن.

وفي هذا المجال أيضا نذكر سلاسل مختلفة صدرت فى السنوات الأخيرة أشهرها (رجل المستحيل) للدكتور نبيل فاروق الصادرة عن المؤسسة العربية الحديثة.. وتدور هذه السلسلة حول ضابط مخابرات مصرى هو أدهم صبرى ويرمز بالرمز (ن ـ ١) حيث يعنى حرف (النون) أنه فئة نادرة أما رقم (١) فيعنى أنه الأول من نوعه.. وهو يجيد استخدام جميع الأسلحة من المسدس إلى قاذفة القنابل وكل فنون القتال من المصارعة حتى التايكوندو.. ويجيد ست لغات.. ولديه براعة فى التنكر وقيادة السيارات والطائرات والغواصات ومهارات أخرى متعددة.

وهى سلسلة اكتسبت شهرة كبيرة لدى الشباب المتعطش لروح المغامرة وتجعل منه إنسانا عصريا مقبلا على الحياة بلا خوف.

وتصدر الهيئة العامة للكتاب سلسلة (الأدب العالمى للناشئين) بإشراف مختار السويفى.. وهى سلسلة تقدم تبسيطا وتلخيصا لكبريات الأعمال الروائية العالمية مثل: مزرعة الحيوانات.. الفرسان الثلاثة.. مرتفعات ويزرينج.. مغامرات هلكبرى فن.. مغامرات شيرلوك هولز.. حكايات من شكسبير.. سجين زندا.. دافيد كوبرفيلد.. وغيرها.

وهى سلسلة تملأ فراغا مهما لدى الشباب يود أن يقرأ ويعرف دون أن يمل من كثرة الصفحات والإطالة والإسهاب.

وتصدر دار نهضة مصر ترجمة لرواية هارى بوتر للكاتبة ج.ك. رولينج وترجمة رجاء عبد الله وآخرين.. وتستمد الكاتبة رؤيتها من

أساطير وقصص السحر الشرقية وخاصة ألف ليلة وليلة حيث تدور الرواية بأجزائها المتعددة حول طفل يموت والداه على يد ساحر شرير.. ولأنه حفيد سحرة لا يفعلون إلا الخير نجده يدخل فى مغامرات مدهشة مرعبة ضد السحرة الأشرار ويفوز فى كل مغامرة.

وقد اختلفت الآراء حول هذه الرواية لكنها على أية حال تلعب دورا مهما فى إيجاد عالم مختلف من الإيهام والخيال بعيدا عن عالم التكنولوجيا والجمود.. وتعيد للقارئ بعضا من الوجدان المفتقد فى ظل الصراع المعاصر والأطماع القاتلة.

وهناك محاولات أخرى فى كتابة الرواية للناشئة على أيدى كتاب معاصرين آخرين منهم: يعقوب الشارونى عبد التواب يوسف - نتيلة راشد - صلاح عبد الصبور - أحمد سويلم - راجى عنايت.. وغيرهم.

وبالرغم من وجود هذه المحاولات فإن هذه المرحلة مازالت تحتاج إلى مزيد من الاهتمام.. من ذلك مثلا تقديم أعمال كبار كتابنا الروائية فى صور مختلفة سواء أكانت تبسيطا أم تلخيصا لجذب عقولهم إلى هذا الزاد الإبداعى العظيم.. وأيضا إعادة طبع ما نفد من تلك السلاسل التى ذكرناها - على سبيل المثال - لإعادة الناشئة إلى هويتهم العربية وتراثهم والتعرف على ثقافة العالم.

وأخيرا.. فنحن لا نزال فى حاجة إلى تربية أبنائنا بأسلوب مختلف عن تلك الأساليب التى تربت عليها الأجيال السابقة.. فى ظل هذه الأدوات الحديثة لتحصيل المعرفة.. ونتمنى أن ينتبه التربيون

والكتـــاب إلى أن تعود المدرســـة والجامعة إلى ســـابق عهدهما من تقديم الإبداع والثقافة إلى جانب المناهج التعليمية (التلقينية) الجافة.. فنجد الفتى فى ذلك ما ينشـــؤه على المعرفة والإبداع فينعكس ذلك على حياته وعقله.

ولا يجـــوز أن نغفل حاجة النـــشء فى هذه المرحلة إلى ألوان الإبداع الأخرى بجانب الرواية.. فهم مشـــغوفون بالشـــعر فى أشـــكاله ولهذا فإن الشـــعر إلى جانب النثر يمكن أن يشكلا وجدانا إنسانيا متكاملا من المعرفة والخيال وحب الحياة.

ولـــن يتحقق هذا التكامل بغير التنبه إلى أهمية التربية والتنشـــئة الثقافيـــة إلى جانب التربية الاجتماعيـــة والوجدانية.. وهنا يأتى دور المؤسســـات الثقافية وحرصها على تنشـــئة جيـــل واع مثقف مبدع يقود الوطن إلى التطور والتقدم.

* * *

## مغامرة بطل هزم العجز
## رواية للناشئة

هذه رواية قصيرة أبدعتها الكاتبة القاصة الروائية انتصار عبد المنعم ووجهتها للناشئة.. وصدرت عن دار الهلال.

أما موضوعها فيدور حول (خالد) الذى يعانى نوعا من أنواع الإعاقة الجسدية.. فلم يستسلم لهذه المحنة.. وأصر على تجاوزها بجسارة وحكمة وتحد وذكاء.

وأصحاب الظروف الخاصة يأبون دائما أن يساموا بالعجز أو النقص.. ويتمردون على محنهم بالإدارة والأمل والإصرار على أن يعيشوا وكأنهم أصحاء..

وليست مشكلة هؤلاء أنهم فقدوا حاسة أو أكثر من حواسهم.. ولا هى فى عجز أى منهم عن ممارسة عمله بكفاءة ومقدرة.. ولكن المشكلة تكمن فى هؤلاء الذين يتعاملون معهم إشفاقا وسلوى وعطفا.

إن التاريخ يحفل بصفحات مضيئة كثيرة تسجل لهؤلاء العباقرة ما لم تسجلهم لغيرهم ممن تمتعوا بحواسهم الكاملة.

وقد نبغ فى مصر القديمة المكفوفون فى مجال الموسيقى والعزف.. والتفت العرب إلى هؤلاء فنبغ منهم الكثيرون فى مجالات الفكر والأدب منهم على سبيل المثال أبو العلاء المعرى (الكفيف) - وموسى

بن نصير (الأعرج) الذى فتح الله على يديه المغرب - والزمخشرى (الأعرج) حجة اللغة والأدب - والحصرى القيروانى (الكفيف) الشاعر التونسى صاحب «ياليل الصب متى غده» - وداود الأنطاكى (الكفيف) أشهر طبيب عربى وصاحب تذكرة داود - وأبو الأسود الدؤلى (الأعرج) أحد أعلام اللغة العربية -وطه حسين (الكفيف) عميد الأدب العربى - ومحمود أبو الوفا (الأعرج) الشاعر الشهير - وحسين القبانى (القعيد) المترجم القصاص - وصبحى الجيار (المنطرح على ظهره) الروائى والمبدع.. وغيرهم كثير لا يحيط بهم حصر.

وقد اهتم بقضية أصحاب الظروف الخاصة مؤرخون ومفكرون كثر منهم الجاحظ فى كتابه (البرصان والعرجان والعميان والحولان) والصفدى فى كتابه (نكت الهميان فى نكت العميان) وابن قتيبة فى (المعارف) وغيرهم كثير.

والقصد من هذه العجالة أننا أمام فتية من البشر يرفضون أن يطلق عليهم (معاقون أو معوقون).. بل إن كثيرا منهم أعطى للإنسانية ما عجز عنه الأصحاء.

ونعود لرواية مغامرة بطل.. ويعرفنا بطلها على نفسه بوصف يؤكد رفضه لفكرة العجز.. وإصراره على أن يكون عضوا فاعلا فى المجتمع.. يقول:

(اسمى خالد.. يقولون عنى معاق.. وفى أحيان أخرى يقولون إنى من ذوى الاحتياجات الخاصة.. والحقيقة أنى أشعر أنى من المعافين والمميزين وليس من المعاقين).

وبهذا التقدمة ندرك أننا أمام طفل أدرك دوره فى الحياة فهو ليس معاقا.. ولكنه معاف ومميز.

ثم يصف إعاقته التى خلقه الله بها:

(أنا مثل كل الناس فى الجسم ما عدا شكل الأطراف.. فذراعاى قصيران مثل جناحى عصفور.. وينتهيان بكفين صغيرين بكل منهما خمسة أصابع قصيرة.. كل إصبع يتكون من عُقلة واحدة تشبه براعم الزهور قبل أن تتفتح..).

قد يظن البعض أن البطل (يجمّل) إعاقته بهذا الوصف الأدبى الجميل لكنه هنا يقف بنا على إحساسه بنفسه.. وعلى حقيقة مشاعره لمحنته.. لقد أحالها من عجز وقبح إلى زهور وطيور وجمال.. وتلك فاتحة استطاعت الكاتبة أن تجذبنا جذبا حنونا منطقيا إلى متابعة أحداث روايتها.

نحن أمام طفل - ككل أقرانه - يدرس فى المدرسة.. ويستطيع الإمساك بالقلم بكلتا يديه.. ويتعامل مع جهاز الكومبيوتر بل ويصمم عليه نشاطات دروسه المدرسية.

إذن.. لا مجال فى وجدانه لفكرة الاستسلام لمحنته برغم من نظرة الآخرين له المملوءة بالاندهاش والعطف والتعجب من شكل جسده وقصر قامته..

وتسوق المؤلفة هواجس البطل التى تنتابه أحيانا.. وتجبره على اعتزال الآخرين.. حتى زارتهم عمته (هالة) القادمة من كندا لتصحبه

إلى كل مكان.. وتؤكد له أنه ليس وحده الذى امتحنه الله فى حواسه.. وجعلته يشترك فى منتديات التطوع الإلكترونى حتى لا يشعر أنه يعيش منفردا عن غيره.. وكانت النصيحة السحرية من هذه العمة:

(عندما يهزأ بك أحد قل له: لقد خلقنى الله هكذا فهل تستطيع أن تحسن خلق الله.. هل تستطيع أن تخلق مثلى..)

وهكذا أحس خالد أنه متميز وليس معاقا.

وتحكى الرواية أنه يذهب إلى مدرسته كل صباح فى سيارة يقودها السائق (عم سعيد) الذى يرحب دائما بأى تلميذ أو محتاج يركب سيارته.

إلى أن جاء يوم ركب فيه خالد السيارة ونام كعادته فى المقعد الخلفى عائدا إلى البيت.. وفى الطريق استوقف رجلان عم سعيد وسألاه عن منزل صابر أبو سويلم (وهو جار لمنزل خالد).. فوصفه لهما عم سعيد الذى أحس أنهما حائران فدعاهما إلى الركوب.. فجلس أحدهما بجوار عم سعيد والأخر فى الخلف بجوار خالد.

وتيقظ خالد قليلا ليسمع الرجلين يتحدثان.. وعرف أن أحدهما يسمى هاما والآخر يسمى الدكتور شافعى أحد العلماء الكبار الماهرين الذى يتحول الرمل فى يديه إلى ذهب.

صدمت هذه المعلومة خالدا وهو بين النوم واليقظة.. وظل يفكر فيها حتى وصل إلى البيت.. ودل عم سعيد الرجلين على الجار صابر أبو سويلم بل شك فى الأمر بعد أن اكتشف زيف هذا العالم من خلال حوار هامس مع رفيقه وهما يحسبان خالدا نائما لا يسمع تحاورهما.

وكان خالد معتادا على الجلوس فى شرفة بيته التى تطل على ساحة تفصله عن جارهم (عم صابر) وكثيرا ما كان الأولاد يلعبون ويتصايحون ويتقازفون الكرة فى هذه الساحة.

جلس خالد فى شرفة بيته واستعاد أحداث اليوم ليتوقف عند هذين الرجلين.. فالدكتور ليس عالما كما يدعى.. واسمه قاسم وليس شافعى وهمام هو الأقوى وواضح أن قاسم يعمل له ألف حساب.. فماذا يريد هذان الرجلان من عمى صابر؟

كان الوقت ليلا وفيه شاهد خالد ثلاثة رجال يخرجون من بيت عم صابر ويتجولون فى الساحة.. ثم ها هم ينظرون هنا وهناك وكأنهم يدرسون المكان.. لقد كان عم صابر أحدهم وبرفقته الرجلان الغريبان.. ماذا يجرى يا ترى.. تمنى خالد أن يرى أحدا من أبناء عم صابر ليسأله عما يحدث لكنه لم يجد أحدا.. واضطر إلى دخول فراشه حتى يصحو مبكرا للذهاب إلى المدرسة.

فى اليوم التالى قابل خالد صديقه عليا ابن عم صابر وحاول أن يتحدث معه.. لكن عليا ابتعد عنه قائلا: إن والدى وضيوفه منعونى وإخوتى أن نتحدث مع أحد من الجيران.. وعندما سأله خالد عن السبب قال على: أنا لا أعرف هؤلاء الضيوف لكنهم وعدونا أننا سوف نكون فى القريب العاجل أغنياء جدا.

وتمر الأيام وخالد يلح على علىّ صديقه أن يحدثه أكثر.. حتى جاءت إحدى الليالى وخالد فى شرفته يجلس فى الظلام لا يراه أحد..

لكنه رأى الغريبين يحفران الأرض ويضعان صناديق صغيرة فى الحفرة ثم يهيلان عليها الرمال.

وفى المساء التالى.. شاهد خالد أحد الرجلين يخرج من الحفرة أحد الصناديق ويسرع إلى الداخل..

ويواجه خالد صديقه عليا بما رأه.. فهمس علىّ فى أذن خالد:

إنه الذهب يا خالد.. لقد حول الدكتور شافعى الحجارة إلى ذهب بشىء اسمه الزئبق الأحمر ثم وضع ذلك فى صندوق ودفنه فى الأرض.. ثم فتحه ليجد أن الحجر تحول إلى ذهب خالص.. ولهذا قرر والدى بيع قطعة أرض يمتلكها وعرض البيت للبيع ليعطى الدكتور المال الذى يشترى به الزئبق الأحمر الغالى الثمن وليس أبى فقط الذى يفعل ذلك بل جاء عمى فتحى بما معه من مال وأعطاه للدكتور لكى يحول الحجارة إلى ذهب ونصبح جميعا أغنياء.

أخذ خالد يفكر فى الأمر.. ولما عاد إلى البيت اكتشف عن طريق الكومبيوتر معلومات كثيرة عن الزئبق الأحمر وكيف أن عصابات تقوم بتهريبه بملايين الدولارات فى بعض دول العالم.

إذن نحن أمام عملية نصب وخداع وسرقة.. ولهذا فكر فى الأمر.. وأخذ يسأل نفسه كيف ينقذ جاره من هذه العملية المخادعة.

لم يجد خالد أمامه غير أن يدخل إلى مدير المدرسة ليحكى له كل شىء.. ويدرك المدير خطورة الأمر فيتصل بابنه النقيب ضياء الذى استطاع بخطة محكمة وبمساعدة خالد وجدته القبض على هذه العصابة.

ذلك ملخص الرواية.. ولكنها حافلة بالتفاصيل الطريفة الشائقة التى تجذب القارئ إلى متابعتها والتى تنتهى فى النهاية أن خالدا استطاع أن يشارك فى القبض على هذه العصابة بذكائه وشجاعته وحسن تفكيره.

لقد كان خالد نموذجا ممتازا.. ومثالا قويا جسورا لهذه الفئة من البشر التى لم تستسلم لمحنتها.. بل أودعتها جانبا وانطلق بكل تفكير وجسارة لتحقيق هدفه وإنقاذ جيرانه من خطر العصابة.

هو إذن مضمون يعكس تقدير واحترام أصحاب الظروف الخاصة فإذا كان الله قد امتحن أحدا فى حاسه من حواسه.. فهو يعوضه فى حاسة أخرى.. ولقد كان خالد ذكيا شجاعا مصمما على الوصول إلى نهاية الطريق مهما كلفه ذلك من مخاطر.

لقد اختارت الكاتبة هذا النموذج الذى يعبر عن ملايين الأطفال لكى تبث فى نفوسهم الثقة والكبرياء وحب الحياة.. فوضعت البطل فى مغامرة تحتاج إلى استخدام العقل والتفكير.. ونجحت ع بطلها فى التواصل مع أحداث الرواية فى سرد بسيط ولغة سلسة.. وأسلوب يجمع بين الصورة المستمدة من الطبيعة والمفردات المشحونة بالمعنى.

وأحسب أن الساحة الخاصة بالأطفال تفتقر إلى مثل هذه الروايات؛ نحن إذن فى حاجة إلى المزيد من هذه الكتابات خاصة فى تلك الزوايا المتصلة بالفئات التى فرض عليها القدر أن يعيشوا فى محنة ونقص..

لكى نعيد لهم ثقتهم بأنفسهم.. وإنسانيتهم التى تتوازى تماما مع إنسانية الأصحاء.

وأخيرا.. نطالب الكاتبة بمزيد من هذا الإبداع المتميز.

* * *

## السحر والخوارق
## بين هارى بوتر وألف ليلة وليلة

**ماذا** عن هارى بوتر وتأثره بما جاء فى الليالى من خوارق وسحر فى عصر لم يعد يسلم بالخوارق والسحر؟

وقبل أن نعقد هذه المقارنة.. نبادر بالتأكيد أن كتابا كثيرين فى الغرب قد سحرتهم الليالى وتأثروا بها فى أعمالهم الأدبية.. نذكر منهم على سبيل المثال: الكاتب الإنجليزى (ليسنج) الذى ألف مسرحية علاء الدين.. والكاتب الفرنسى (بيورمارشا) الذى ألف حلاق أشبيلية.. والكاتب د. إتش ويلز الذى استمد طائر الرخ فى إحدى قصصه.

ويذكر أن بعض المستشرقين أعداء الشرق قد عمدوا إلى مهاجمة أدب ألف ليلة وعابوا عليه الاستطراد الكثير وتفاهة الحوادث والإطالة فى الوصف.. لدرجة تبعث على الملل.. ولقد فات هؤلاء أن قصص ألف ليلة تتميز بالتركيب لا بالتبسيط وأن الحكاية الأصلية تتفرع إلى حكايات متتالية وتستقبل تراكمات من الأحداث تساعد بدورها على تفريج أحداث القصة الأصلية.

وإذا سلمنا جدلا بهذا العيب ففى ظنى أن مؤلفة هارى بوتر ج.ك. رولينج قد وقعت فى العيب نفسه حيث عمدت إلى الاستطراد

والإطالة فى الوصف وتقديم التفاصيل وكأنها تكتب سيناريو سينمائيا.. والغرابة أن ذلك كله لم يحل دون إقبال الأطفال فى المجتمع الغربى على قراءته بنهم.

واعتقد أن المؤلفة قد قرأت ألف ليلة قراءة متأنية.. فأعجبها تيار السحر والخوارق.. ثم ها هى تدون تلك الخوارق لتجعلها ركيزة أساسية تقيم عليها عالمها المسحور.. ولكى تكون منطقية - بمنطق العصر - أجرت أحداثها خلال مدرسة معاصرة للسحر يتعلم فيها الفتيان والفتيات.

حاولت إذن أن تجد لها إطارا فنيا.. بل أكاد أجزم أنها صنعت بنفسها مدرستها هذه ورسمت طرقاتها وقاعاتها ودهاليزها.. والقلعة المجاورة لها.. ووضعت هذا الرسم المجسم أمامها حتى لا تخطئ فى موقف واحد من المواقف.

وفى ظنى أيضا أن المؤلفة وإن استغرقتها ألف ليلة.. قد أخذت من مصادر أخرى مصرية قديمة ويونانية ورومانية وألمانية.

وباختصار شديد.. دعونا نستعرض بعضا من هذه الإشارات والتأثيرات. هناك الخيط الرئيسى فى الرواية: الساحر الشرير فولد مورت.. ونعلم أنه ليس وحده ولكن له تلاميذ وأصدقاء كثيرون.. وهناك سحرة طيبون يتزعمهم دمبلدور وتلميذه المخلص هارى.

ونجد خزائن البنك الثمينة التى يحرسها أكثر من تنين.. ويذكرنا ذلك بالكنوز المسحورة الثمينة التى يحرسها الثعابين والتنانين فى الليالى.

فى هارى بوتر تمثل العصا السحرية محورا مهما.. ولها درجات وقوى خارقة واستخدامات فى اللعب والطيران وقهر العدوان.. تماما مثل البساط السحرى والحصان الطائر فى الليالى.. وكذلك نجد فى هارى بوتر السيارة المسحورة التى تطير وتعبر البحر.. وتشق الفضاء.. ويأمر قائدها من يركبها بعدم النظر إلى الوراء.. تماما كما يحدث فى الليالى.

فى هارى بوتر كان يغرس دبوسا يوميا فى الحائط حتى يعرف التاريخ.. ولا أدرى كيف يفتقد هارى معرفة الوقت ولديه قوته الخارقة.. ويعيدنا إلى فكرة الحساب البدائية العربية.

فى هارى بوتر نجد المكنسة المسحورة.. وهذه أسطورة شرقية قديمة يلقى عليها صاحبها أوامره فتطيع.. فى هارى بوتر الجنى الجبار الذى استطاع هارى وأصدقاؤه أن يحبسوه فى غرفة مظلمة.. ويذكرنا ذلك بقصة الصياد والعفريت فى الليالى.

تخترع المؤلفة حجر الفيلسوف الذى يحول أى معدن إلى ذهب.. ويذكرنا ذلك بالملك الذى طلب من الجنى أن يمنحه القدرة على تحويل أى شئ إلى ذهب بمجرد اللمس..

فى هارى بوتر التنين والثعابين والوحوش ذات الرؤوس المتعددة تماما مثلما جاء فى الليالى من المخلوقات العجيبة: الحصان ذو الرأسين والثعابين ذات الرؤوس والوحوش التى لها عين واحدة.. وهكذا.

فى هارى بوتر البلورات المسحورة التى تذكرنا بمثيلتها فى الليالى.

فى هارى بوتر كان الإخفاء عن طريق العباءة التى ورثها هارى

عن أبيه فتخفيه عن أعين الآخرين.. ويذكرنا ذلك بطاقية الإخفاء وبالتعاويذ التى يطلقها الساحر فيختفى عن أعين الناس.

فى هارى بوتر المزمار الذى يسيطر بنغماته على الوحوش والحيوانات ويصيبها بالنعاس.. تماما كما كان يحدث فى الهند من إطلاق المزمار نغمات يرقص عليها الثعابين أو القرود ويسيطر عليها.

فى هارى بوتر الإنسان الذى يتحول إلى ذئب أو قطة أو طائر أو نمر.. كما كان يحدث فى الليالى.

فى هارى بوتر التعاويذ وقراءة الكف والأعداد السحرية والتنجيم والبوم الذى ينقل الرسائل وكل هذا مستمد من حضارات الشرق.

ذلك بعض من كثير من التأثيرات بألف ليلة وأساطير الشرق وهنا يُثار سؤال مهم.. ما الذى تريد المؤلفة أن تقوله لأطفالنا فى عصر العلم والكمبيوتر..

ويبدو أن اختلاف الآراء حول هارى بوتر بين مؤيد ومعارض.. وأكاديمى وفنى.. يجعل الأمر شديد الصعوبة فى الحكم على هذا العمل.. حيث لا يعنى توزيع الكتاب بالملايين أنه كتاب جيد.. تماما مثلما نحكم على الأفلام التافهة التى يقبل عليها شبابنا بلا طائل.

وأخيرا لا ندرى أكانت المؤلفة تقصد أن تستعير كل هذه الخوارق من ألف ليلة وغيرها وتقديمها من خلال رؤية العصر التى تجمع المتناقضات وتسقط أحلام الإنسان فى آبار الحيرة.. أم كان من الأجدى لها ولنا بعد أن جمعت كل هذه الخوارق أن تقدم صورة مبسطة من

الليالى لأطفال الغـرب.. فتحقق فى وجدانهم التكامل بين رؤية العصر ورؤية التراث.

وهكذا ندرك أن المبدعين الأوربيين قد سـحرهم الشـرق وحكاياته ورأوا أنه عالم جديد بالنسـبة لمجتمعاتهم.. فأقبلوا عليه يستلهمونه ويتمثلونه فى صياغات قصصية مختلفة.

* * *

## السير الشعبية وأدب الطفل

خلَفت الإنسانية على مدى تاريخها الطويل تراثا كبيرا ثريا من الحكايات والنوادر والقصص والملاحم التى تنتمى إلى الإنسان جيلا بعد جيل.. وهى تتضمن أفكاره وقيمه وسلوكه وثقافته وعقائده.

وقد اختلف العلماء المهتمون بدراسة الموروث الشعبى فى تعريفه.. وبعيدا عن هذا الاختلاف فإن الموروث يحمل فى ثناياه الملامح النفسية والفكرية للمجتمع الكبير فى أى عصر من العصور.. وهو الذى يصوغ الإطار العام ويحدد العلاقات بين الفرد والجماعة صغيرة كانت أم كبيرة. إنه التراث الذى يعنى الثقافة أو العناصر الثقافية التى تلقاها جيل بعد جيل وتدلنا على ذلك تلك التفسيرات المختلفة التى تدور حول (التراث) منها:

- التراث الشفوى.. ويعنى جميع جوانب المأثورات الثقافية التى انتقلت شفويا.

- الإبداعات الأدبية الشعبية.. وتشكل جانبا مهما من جوانب التراث الشعبى، وتشمل السير الشعبية والحكايات والأغانى والشعر والألغاز.. وغيرها.

- التراث الشعبى.. وهو يمثل عامة الموضوعات التى تنتمى إلى الفلكلور.. وإلى دراسة التراث أو الإبداع الشعبى.

ويبـدو أننا يمكن أن ننقذ أنفسـنا من هذا الغـرق بين المصطلحات بمفهوم يقودنا فى مسيرتنا.. وهو أن الموروث الشعبى هو محصلة الثقافة الشـعبية المتراكمة المتنقلة من أقدم العصور.. والمسايرة لتاريخ الشعب علـى مر العصور وتنوع مظاهر حياتـه.. وهذا الموروث هو الذى يحافظ على دعامـة الأصالة ولا يقف فى وجه التقـدم العلمى والتكنولوجى.. بل يسـاعد عليه بالمعرفة الصحيحة بطبيعة الإنسان وجوهر الإنسانية والتكامل الحيوى بين الفرد والمجتمع.

وليس من اليسـير أن نفصل بين الوسـائل المختلفة التى تستخدمها عناصـر التراث الشـعبى.. ذلـك لأن هذه الوسـائل تتداخـل بتدخل الوظائف.. فمجال الفنون الزمنية والتشـكيلية يتشـابك إلى حد كبير وتتداخل التقاليد والعادات فى أشكال الفنون الشعبية والمضامين.

وطبقا لهذا التحليل الشـامل فإن الموروث الشـعبى يهتم بالعادات الشعبية والمعارف الشـعبية والأدب الشعبى والفنون الشعبية والثقافة المادية.

ولـكل أمة موروثها الشـعبى الذى يحـرص كتّابهـا على تقديمه لأبنائهـا – صغارا وكبارا – ومهما اختلفنا على إطارات وأشـكال هذا الموروث فإن من أهم صفاته الاحتفاظ بما يتفق مع التطور.. والاسـتغناء عما يتعارض معه.. وتعديل ما يستحق أن يعدل.

لهـذا فإن عناصر هـذا الموروث وأبطاله ورموزه وسـيره وعاداته.. تخـترق الزمن.. فيصل إلينا منها ما يحمل دلالات العصر.. وما يمكنه

أن يعيـش فى الوجدان العام بصرف النظر عن عنصرى الزمان والمكان.. وهى معطيات تحتفل بالقيم العليا التى تسود المجتمع الإنسانى.

ويعد الأدب الشعبى أهم حلقة من حلقات الموروث الشعبى.. وتعتبر (الحدوتة) الشعبية أول لون من ألوان السرد القصصى عرفته الإنسانية فى طفولتها الأولى.. فقد نشـأت الحدوتة مع قدرة الإنسـان على الكلام فى إطار ذلك المجتمع البدائى المحدود.. والذى كان يضم الرجل والمرأة ويضم ما لهما من أولاد صغار.

ولا نسـتطيع أن نزعم أن الحدوتة فـى ذلك المجتمع البدائى كانت عمـلا عقليا وفكريـا.. ولكنها كانت عمـلا فطريا دفعـت إليه غريزة البقاء.. فقد نشـأت فى إطار التحذير والتخويف من الضرر.. وتوجيه الأوامـر والنواهـى لتجنب الخطر.. ومن ثم تعتـبر الحدوتة أول عمل تربوى عرفته الإنسانية منذ بدأ الإنسان يحس بكيانه فى هذا الوجود.

ويؤكد الكاتب الإنجليزى (هـ. ج. ويلز) أن الرجل المسن فى محيط الأسـرة ومركزه فيهـا كان موضع احـترام الجميع.. ومـن هنا كانت بداية الحكمة الاجتماعية والسـلوك التربوى فى المجتمع الأول.. فقد بدأت الأمهات يغرسـن فى نفوس الأبناء الصغار احترام الرجل المسـن وتقديره.. لأنـه الكبير ولأنه الحكيم.. وربما مثـل هذه البذرة الأولى للرأى الحكيم أو الحكّاء.

واعتمدت الحدوتة على أبطال من البشر والحيوان.. وجعلت الحيوان يتكلم ويغضب ويفرح ويخادع ويناور ويرضى.. تماما كما يفعل الإنسان.

ثم جاءت الحكاية الشعبية بعد الحدوتة بعد أن نمت فى الإنسان القدرة على السرد والقصص والتخيل والمحاكاة والتعبير.. وبعد أن صارت له تقاليده وعاداته.

والحكاية تدور على ألسنة شخص أو أشخاص يمثلون نموذجا إنسانيا.. متميزا.. «فجحا» مثلا يمثل الضاحك الباكى.. و«قراقوش» يمثل الحاكم الظالم.. و«أيسوب» يمثل حكمة القدماء.. وهكذا.

أما السيرة الشعبية فهى حكاية شعبية طويلة ذات حلقات وفصول.. وهى تشمل حقائق لا سبيل إلى إنكارها.. وتشمل كذلك خرافات أو خيالا محضا لا سبيل إلى إثباته.

ولعل واضعى هذه السير لم يقصدوا إلى التحقيق والتدقيق.. بل اهتموا بمغزى القصة وتأثيرها وغاياتها التربوية وقيمتها.

فإذا كان المراد تحقيق أى غرض من هذه الأغراض.. فلا بأس لديهم أن يضعوا إلى جانب عنترة أو سيف بن ذى يزن.. أو حتى هارون الرشيد أشخاصا جاهلين.. وأشخاصا آخرين عاشوا بعد البعثة المحمدية بسنوات طويلة.. من ثم ينضمون هؤلاء جميعا فى سلك واحد دون النظر إلى فوارق الزمان والمكان.. وبذلك يتحقق الغرض التعليمى مثلا.

وإذا كان الغرض الأخلاقى يتحقق بأن يصرع أبو زيد ألفا فى معركة واحدة فإنهم يقيمون هذه المعركة من العدم.. ويصرعون ألفا بضربات السيف وطعنات الرماح.. بل وبدقات الدبابيس.

ولذا فالتاريخ الذى تصوره هذه القصص ليس كالتاريخ الذى نعرفه ونقرؤه فى مراجعه الدقيقة.. ونصححه على ضوء الوثائق والآثار

والشواهد.. بل هو تصوير للحياة الوجدانية التى عاشها العامة فى ظل أحداث كبيرة أو فى ظل شخصيات كبيرة.

ويتراوح أسلوب السير بين النثر والشعر.. ويدور حول البطولات والفروسية والحروب ولهذا فهى تشتمل على أشعار ملحمية.

وأهم أبطال السير الشعبية: عنترة بن شداد – سيف بن ذى يزن – أبو زيد الهلالى – على الزئبق – الأميرة ذات الهمة – الظاهر بيبرس – حمزة البهلون – فيروز شاه – أحمد الدنف.. وغيرهم كثير لم يصل إلينا.

وقد جاءت السير الشعبية تصويرا حيا للبطل العربى الذى لا يقهر، وتتضافر هذه الصورة مع الأبطال الجانبيين فى محاربة الشر الذى يرمز له ويسمى فى السير بالكفر والخروج على الدين ومناصرة عبادة الأوثان.

فكأن فكرة الخير والشر قد تشكلت فى هذه السير تشكلا إسلاميا يتآلف مع العقيدة الإسلامية ولا يختلف معها.

ولهذا تقسم السير إلى عالمين: عالم المؤمنين وعالم الكفار والملحدين.. وأيضا تسوق إلينا عالم الجن والشياطين والسحرة والكهان بين الإيمان والكفر.. ومن ثم تدور المعارك.. وتضيق المواقف وتنفرج فى تشويق بالغ وتصوير دقيق وخيال ممتع.

ونلاحظ أن السير تتميز بالطول ولهذا تروى على حلقات.. وقد أثمر هذا الطول عند المحترفين مجموعة من التقاليد القصصية التى تقترن بالسير الشعبية.. من ذلك استهلال السمر وختامه بالصلاة على النبى

مع تأكيد صفته العربية ثم النص على تأثير الشاعر أو المحدث إلى حد البكاء من المتلقين.

ويعكس بطل السيرة حقيقة العلاقات التى تربط الجماعة فى المجتمع الذى أنشئ فيه العمل الأدبى.

أما بطل السيرة فهو بطل درامى يعبر عن الفرد وسط دوامة الصراعات مع القوى الأخرى تعبيرا فنيا.

وإما بطل أسطورى يتمتع بإمكانات لا تعرفها الطبيعة البشرية المحدودة.. فهو يستعين بالقوة الغيبية الخارقة كالسحر والكهانة والآلهة والشياطين.. وأيضا بالقوى الجسدية غير المحدودة.. ويسخر الحيوان والريح والماء فى خدمته، وإما بطل ملحمى فردى يعكس موقفا بذاته لكنه يعبر عن الجماعة وموقفها.

وربما تجتمع هذه النماذج جميعا فى بطل السيرة.. أو تجتمع بعضها دون الأخرى، ومجمل القول إن السيرة الشعبية وإن كانت تتكئ على التاريخ والحقائق لكنها ليست ثبتا تاريخيا لأحداث حياة البطل أو العصر.. ولذا يمكن أن نعتبر قالب السيرة أصلا للرواية فى شتى صورها وبشتى أنواعها ونستطيع - تجاوزا أن نجعلها رواية لا تاريخية ولا خيالية ولا واقعية.. إنما نطلق عليها (الرواية).. أو (الرواية السيرة).

وبذلك يمكن أن تكون سيرة عنترة رواية من نوع السيرة يغلب عليها الطابع التاريخى.

* * *

## السيرة الشعبية فى عالم الصغار

تعتبر السيرة الشعبية.. إلى جانب كل ما يدخل تحت الموروث الشعبى.. من مصادر أدب الأطفال.

وبالرغم من أن السيرة الشعبية التى وصلت إلينا قليلة العدد.. إلا أن الكتّاب قد أقبلوا عليها يقدمونها فى أشكال مختلفة من التبسيط والتيسير والتلخيص.. وكان من أهم الكتاب الذين عنوا بالسيرة الشعبية للكبار والصغار وللناشئة: محمد سعيد العريان - محمد أحمد برانق - عباس خضر - فاروق خورشيد.. وغيرهم.

ونلاحظ أن السيرة الشعبية باعتبارها أدبا شعبيا يمكن أن يكون لها عدة وظائف أهمها:

١- وظيفة ثقافية.. فالأدب الشعبى ليس مجرد تسلية أو متعة أو ترفيه.. ولكنه زاخر بالمعارف العامة التى يحصلها الطفل من الإطار الاجتماعى الذى يحيط بهذا الأدب مثل المواقيت وأسماء الشهور والأماكن والمناخ وغيرها..

٢- وظيفة جماعية أو قومية.. وهى الوظيفة التى تحافظ على التراث الجماعى من ناحية وعلى مزاياها وأمجادها من ناحية أخرى.. وهذه الوظيفة تقوم على ركيزتين أساسيتين هما:

أ- مرحلة التطور للبيئة والمجتمع منذ بدأت السيرة من البداوة إلى الحضارة.

ب- البيئة أى أبعاد الوطن جغرافيا.. ونوعية هذه البيئة الاجتماعية.

٣- وظيفة نفعية.. حيث يرتبط الأدب الشعبى بمنفعة الإنسان وثروته أكثر مما يرتبط بتحقيق القيم الجمالية أو التسلية أو تزجية الفراغ.. ولذا فهو يقدم معانى عملية وقيما تربوية مختلفة.

٤- وظيفة الشعور بالذات.. الفردى والجماعى.. وهذه الوظيفة تبدو فى حكمة الشعب المبثوثة فى أمثاله وملاحمه الكبرى التى تحكى سير الفرسان والأبطال.

٥- وظيفة تفسير الظواهر.. بالمحافظة على الأصالة والقيم القديمة.

ويرى بعض العلماء أن السيرة الشعبية هى أهم الأشكال التى تصلح للطفل وهى تعد الحلقة الكبرى فى التراث الأدبى الشعبى.. ويرون أنها بمضامينها ومحاورها خط مشترك بين العرب.. وجميعها تستهدف التصعيد إلى مثال تحرص الإنسانية أو الجماعة عليه كما تستهدف تثبيت القيم الإنسانية العليا بالإضافة إلى الترفيه والتعليم..

إن السيرة الشعبية تقدم بطلها فى مراحل خمس هى:

١- مرحلة التكوين.. أى فترة ولادة الشخصية قبل ملامحها وسماتها وجذورها الأولى وما يمكن أن يبدو عليه من الصغر من صفات تسمو وتتسع وتتبلور حتى يصبح بطلا.

٢- مرحلة الفروسية.. وفيها يخلص البطل من جميع الدوافع الذاتية التى كانت تتحكم فيه ليحل محلها دوافع أخرى تحدد تقاليد الفروسية العربية بكل مقوماتها.

٣- المرحلة الأسطورية.. حيث يصبح البطل رمزا للفارس الذى لا يقهر.. وتصبح أهدافه أهدافا موضوعية لا ذاتية.

٤- المرحلة الملحمية.. وكما هى الحال فى الأعمال الملحمية.. بعد أن يصل البطل إلى القمة.. لا يجد أمامه إلا الطريق الوحيد إلى الانحدار مرة أخرى من القمة إلى السفح.

٥- مرحلة الامتداد.. حيث تنتهى حياة البطل وتنتهى إلى جواره الخيوط التى كانت تربط مجتمعه الخاص ومجتمعه العام فتتفكك كلها وتتهاوى بعد موت البطل الذى يربط بينها.. لكن موته الجسدى لا يعنى موت أعماله أو قيمه أو بطولاته.. فكل هذا يظهر فى أكثر من شكل وصورة.. يظهر فى أبطال صغار.. أو معارك مماثلة ممتدة تتجسد فيها كما كان يفعل البطل القديم.

ولا شك أن هذه المراحل إنما تترجم وتصور مجتمعا كبيرا بكل ملامحه وانتصاراته وهزائمه.. طموحاته وعثراته.. ونجد فيها العادات والتقاليد والقيم التى تعيش فى وجدان الإنسان غير مبالية بحاجزى الزمان والمكان..

إن السيرة تقدم صورة اجتماعية كاملة.. تسمح بأن تكون مادة متطورة مع الزمن.. وهذه السمة بالذات هى التى تغرى الكاتب بتقديم

السير الشعبية برؤى مختلفة للكبار والصغار على السواء.. أو كما نقول بتعبير العصر، تقديم السير الشعبية فى ضوء رؤية العصر.. لأنها تتميز بالمرونة والثراء والرموز والإيحاءات والمواقف التى تمتد بدلالتها إلى الحاضر.. ومن هنا كان الجذب وكان الإغراء بتقديمها إلى قراء العصر.. وبنفس أسلوب التعامل مع ألف ليلة وليلة أو كليلة ودمنة..

ويمكن أن يتعامل كاتب الأطفال مع السيرة الشعبية فى ضوء كثير من العناصر أهمها:

١- أن السيرة الشعبية منبع خصب للخيال.

٢- أنها تتميز باحتضان القيم الإنسانية والصراع بين الخير والشر وانتصار الخير.

٣- أنها تقدم نماذج البطولة العربية.. تلك البطولة التى تعتمد على الشجاعة والإقدام وترفض التواكل والفشل والتقاعس عن العمل القومى المنشود.

٤- أنها تقدم مواقف يمكن أن تتكرر وتوجد فى أى عصر.. باعتبار السيرة.. هى سيرة نماذج إنسانية فى جميع أحوالها وتقلباتها.

٥- أنها تقدم الأصالة العربية.. تلك السمة التى ينبغى أن نجسدها ونحييها من جديد وأن تتوحد فى وجداننا بما تبقى من جمال الماضى.. وروعته.

٦- أنها تقدم الدراما بما فيها من عناصر الحكى والتشويق والحكمة والمتعة جميعا.. وكلها تدخل فى ذكاء وجدان الصغير وعقله.

٧- أنها تقدم الثقافة والمعرفة بكل أفاقها وعناصرها.

٨- أنهـا تعطـى أمثلة كريمة يسـتعين بها الصغـير فى مواجهة الصعاب والمواقف المعقدة.. بفكر مفتوح وقلب لا يتقهقر.

٩- أنها تجسـم الرغبة الملحة فـى تحرير النفس والجماعة من أى قيود أو حصار أو ضغوط.

١٠- أنها تجسـد حاجة المجتمع إلى البطل الشعبى فى كل العصور حيث يعطى البطل البعد الاجتماعى والإنسانى والفنى لأشهر الأحداث التاريخية التى يمكن أن تحدث فى أى عصر.

أما القوالب الفنية التى يمكن أن تقدم فيها السيرة الشعبية للصغار فيمكن أن تكون أحد القوالب الآتية:

١- تبسيط أو تيسير السيرة فى قصة متعددة الفصول أو الأجزاء.

٢- تقديمها فى صورة درامية مسرحية.

٣- تقديمها أو تقديم جوانب منها فى قصص قصيرة.

٤- التعبير عنها شعرا.

٥- تقديمها فى وسائل الأعلام المرئية والمسموعة.

وهناك ملاحظـة أخيرة ينبغى أن تكون تحت عين وبصيرة الكاتب هى أن السـيرة الشعبية والموروث الشعبى بصفة عامة.. يجب أن توضع تحت مشـرط الاختيار والتنقية والتصفية.. بحيث نحترم فيما نقدمه عقلية الصغير وما يتناسب مع مرحلة عمره ومع مستوى إدراكه وثقافته ووجدانه.. فنسـقط كل ما يطيح بقيم الصغار.. ونعمل على تغذية خيال ووجدان وعقل الصغير بكل ما يفيد وما يضيف.

## مثال تطبيقى سيرة عنترة بن شداد

إن التعريف العلمى المعاصر لكلمة (سيرة) يحدد مكانها بين التاريخ والأدب. فهى تاريخ من حيث تناولها لحياة فرد له أهمية كموجه للأحداث فى عصره.. أو جماعة لعبت دورا ذا أثر فى تاريخ أمة.. أو تاريخ الإنسانية.

وهى أدب من حيث كونها تحمل انطباعات مؤلفها.. وتتلون بثقافته ووضعه الاجتماعى وموقفه من الحياة.

وحينما نتناول سيرة عنترة مثلا تطبيقيا لإمكان تقديمها للطفل.. نجد أن لها جانبا تاريخيا فهو شخصية واقعية عاشت العصر الجاهلى.

لكن ما قدمته السيرة أكثر كثيرا مما قدمه التاريخ.

وكل ما وصل إلينا من أخبار عنترة.. أنه كان عبدا.. سعى لكى يتحرر ويتزوج عبلة التى كانت من السادة.. وأخذ يؤكد ذلك فى أشعاره.. التى كانت أول معول فى هدم جدار عبوديته باعتبار أن السادة فقط هم الذين يقدرون على الشعر.. ومن ثم كان عنترة فارسا للسيف والشعر معا.

هذا ما يقوله التاريخ عن عنترة.

لكن ما تقوله السيرة لا يكتفى بما صح من هذه الأخبار التاريخية.. فسيرة عنترة ليست تاريخا لأحداث حياة هذا الفارس.. وليست تتبعا لمراحل حياته فحسب.. وليست تتبعا لحياة قبيلة عبس وحدها –

جغرافيـا وتاريخيا إنها تتجاوز هذا كله إلى خلـق المواقف والأحداث وتخيل مجالات الحركة لصاحب السيرة.. ودفعه ليؤثر التأثير المطلوب الذى قد لا تنتجه الأحداث التاريخية الثابتة.

كما أن كاتب السـيرة يدخل من الشخصيات ما لا يدخله التاريخ.. ويجعل لها أدوارا ذات أهمية مؤثرة فى الأحداث.

أما لماذا نختار سـيرة عنترة ولا نختار غيرها.. فلأن هذه السـيرة هى أول الأعمال التى عرفها تراثنا الأدبى.. ولأن بطلها شـاعر جاهلى معروف ارتبط اسمه بالمعلقات التى ضمت شـعراء كبارا غيره.. كما أن له دورا مشهورا فى الدفاع عن بنى عبس ضد بنى ذبيان.. كما أن السيرة تتناول أحداثا تاريخية ليسـت فقط فى الجزيـرة العربية بل أيضا فى غيرها من البلاد المجاورة.

ويلاحظ مؤرخو السيرة أننا يمكن أن نجد إشارات لسيرة عنترة فى السير الشعبية الأخرى على حين لا نجد فى سيرة عنترة أى إشارة لأى سيرة أخرى.. مما يجعلها أقوى.. وأشد تأثيرا من غيرها.

إن سـيرة عنترة ترسم مكانة الفارس العربى.. فى مجتمعه.. فبعد أن تحل مشكلة عنترة الشخصية باعتراف القبيلة به وبزواجه من عبلة وتعليق قصيدته على أسـتار الكعبـة.. تصبح مهمة الكاتب إبراز دوره كفارس عربى على فرسان الروم المشهورين.. وفرسان الفرس المعروفين.

ولا شـك أن الكاتب هنا يؤكـد هوية العربيـة.. ويدافع عن قضية الانتماء وموقف العرب من الشعوبية.

ولا شك أن هذه قيمة عربية يمكن أن تقدمها السيرة إلى الناشئة ليعودوا إلى هويتهم العربية من خلال هذا النموذج الفذ الذى أعلى جبين أمته فى تلك المعارك القديمة.

ثم يلجأ إلى توسيع دائرة الصراع.. فالعرب يجاورهم ملك كسرى وملك قيصر.. ولابد لأحدهما أن ينحاز إلى أهداف هذا الفارس العربى.

وتكاد تكون هذه القضية هى التى تتكرر فى كل عصر.. طمعا فيما يتميز به المجتمع العربى من ثروات ومكاسب وحضارة.

وتخضع الإمبراطوريتان للنفوذ العربى بقوة الفتح.. ورغم هذا الانتصار يجد العربى نفسه مضطرا إلى الدفاع عن نفسه وعن قيمه الحضارية قبل الإسلام.

وهذا يماثل حمية العربى فى كل العصور فى محافظته ودفاعه عن تراثه وحضارته باعتبار أن الماضى العريق هو رحم للحاضر.. وأن قيمه الأصيلة تجمع بين الثبات - فى جوهرها - والمرونة فى ملائمتها للعصر وهذا ما نطمع أن يتعرف عليه طفل اليوم.

ثم إن قصة عنترة هى قصة المطالب بالحرية حتى نالها.

وتقدم السيرة مواقفه وصراعه من أجل نيل هذه الحرية.. ومن أجل المساواة بينه وبين الآخرين فى الحقوق والواجبات.. كما تعكس صراع البطل ضد تخلف الفكر والعنصرية.

وهى المشكلات نفسها التى لا تزال تعانيها بعض المجتمعات القريبة والبعيدة من أجل القضاء على العنصرية.. ومن أجل الحرية

والعدالة والمساواة.. ولا شك أن تنشئة أطفالنا على مثل هذه القيم تضمن لهم ولأوطاننا غدا يسعد بالحرية والعدالة.

إن مقاييس الحكم على البشر ليست بالمولد واللون والجنس ولكنها لابد أن تتغير لتؤكد قدرة الفرد على العطاء.. والقيام بالمسئولية والالتزام الخلقى أمام الجميع وبهذا المفهوم تبلور سيرة عنترة شخصية البطل.. ولهذا فإن هذا الإطار الذى تقدمه السيرة يوشك أن يكون إطارا عصريا.. فنحن فى حاجة إلى تأكيد هذه القيم لدى الصغار.. علينا أن نؤكد لهم قيمة العطاء والعمل والمسئولية والالتزام.. وعلينا أيضا أن نسوق مثالا كعنترة وهو يصارع فى سبيل تأكيد هذه القيم.

ويجمع عنترة فى شخصيته متناقضات كثيرة.

إنه عبد يعانى ذل الأسر والعبودية واللون الأسود.

لكنه يتحدى ذلك كله.. بفضائله التى تؤهله لمركز الصدارة فى القبيلة.. فهو فارس لا يقهر.. وهو شاعر كبير.. له آراؤه وفلسفته وأحلامه أيضا.. ولكى يبرز المؤلف هذه الفضائل.. ولكى تكتمل الدراما.. يضع أمام البطل صورا أخرى لشخصيات تنتسب إلى أشرف بطون القبيلة لكنها شخصيات ينقصها الوعى والإحساس والانتماء والتمسك بالقيم.. بل يعانى بعضها نقصا فى رجولته.. وخوفا من الأخطار.

وهنا تكون الدراما والصراع الدائر بين طرفى النقيض.. بل بين نموذجين مختلفين مما يدخل فى دائرة التحدى والحرص على الذات الكريمة لدى البطل.

إن شخصية عنترة تواجه شخصية ابن زياد فى حب عبلة.. وهو مجال للتنافس يحرص المؤلف فيه على خلق المواقف الذى تظهر الفضائل الكامنة فى شخصية عنترة العبد الأسود.. وتظهر المطاعن واضحة فى شخصية ابن زياد المدلل الثابت النسب.. العريق الحسب.

إن السيرة تؤكد أن الشرف وحده لا يكفى.. فالصدفة تلعب فى وجوده.. وليس للإنسان فضل فى أن ينحدر من صلب غنى أو فقير.. وإنما تفضل السيرة من خلال المواقف والأحداث والتطور الدرامى.. ذلك الشرف الذى يؤكده عنترة فى شعره

إنى امرؤ من غير عبس منصبا  شطرى وأحمى سائرى بالمنصل

إنه التفوق والفروسية والسمو.

ويجتهد المؤلف فى خلق المواقف التى تضع هؤلاء فى موقف الاختيار وتكون النتيجة تفوق عنترة.. وإخفاق الآخرين.. إنهم يفقدون حريتهم ولا يحصلون عليها إلا من سيف عنترة - العبد الأسود - فيصبحون بهذا عتقاء سيفه.

ويحصل عنترة بجدارة على حريته حينما ينقذ القبيلة من دمار محتوم.. ولولا وعد شد د له بالحرية لما هبط إلى ميدان المعركة ليقلب ميزانها لصالح قبيلته ويتحول من عبد لا يصلح إلا للحلب والصر إلى سيد فى القبيلة له فضل انتصارها وبقائها.. والحفاظ على ماء وجهها.

إنه فارس عربى.. ونموذج يشعل وهج العزيمة فى وجدان الصغار ويرفض الهزيمة فى كل المواقف.

وتتعـدد المواقف التى تثبت أن عنترة فارس لا يقهر.. وأنه يتحلى بسمات الفارس.. وخلق الفروسية.. من السماحة إلى الشجاعة إلى الكرم إلى الفـداء إلى العمل.. إنها خلق الفـارس وهى أيضا القيم الخالدة التى يمكن أن تمتد إلى عالمنا المعاصر لو أننا وعيناها وأعدناها إلى سلوكنا.

أما مواقف التحدى فى السيرة فهى كثيرة.

وربمـا ينقصنـا الآن أن نربى أبناءنا على تحـدى وقهر ظروفهم.. فبالإرادة والعزيمة يمكن أن نحقق الكثير.. ولا شـك أن أبناءنا يمكنهم أن يجـدوا فـى عنترة القـدوة والمثل الأعلى فى كثير مـن المواقف التى يقتحم فيها الصعاب ويتحدى نفسه ويتفوق عليها.

إن شـيمة الفارس ألا يستسـلم لأى قهر ـ هكذا تؤكد سيرة عنترة – إنه يعلق شـعره فوق أسـتار الكعبة لأن شـعره جديـر بذلك.. وهو يحصل على حريته باعتراف الجميع.. لأنه لولاه لأسرت القبيلة كلها وأصبح رجالها ونسـاؤها وأطفالها فـى قائمة العبيد.. وهو يحصل على نـوق النعمان – النـوق العصافير – التى لا يقدر عليها أحد ويسـوقها مهـرا لعبلة.. ولم يكن أحـد يصدق هذا.. بل عـدّوه – لو حدث – من قبيل المعجزات.

إنه إذن فارس حر بسـماته وخصائصه.. وخصاله.. وما حق الحياة والحرية الذى حصل عليه إلا شىء من كثير فتح أمامه الطريق إلى القمة..

والسـيرة حافلة بالمغامرات والأخطار والمواقف الصعبة التى تجذب القارئ الصغير وتنمى خياله.. وتذكى إحساسه.

لقـد قدمت السـيرة أهدافا كثـيرة.. اجتماعية وثقافية وسياسـية ودينية.. وهذه الأهداف ترسم صورة كبيرة للمجتمع العربى وارتباطاته كلها دون أن تهمل الوقوف عند الجزئيات الهامة لتفصيلها..

وبطل السـيرة هنا صاحب رسالة سامية هى رسـالة العدل والحق والواجب والخير.. والانتصار على الشر..

وبعد..

فقد قصدنا أن نلقى الضوء على سيرة عنترة.. لنستشف منها قيمها ومـا يمكن أن تضيفه إلى عقلية الصغير فى عصرنا الحديث.. باعتبارها سيرة العرب فى كل زمان.

* * *

## البعد الإسلامى فى ثقافة الطفل العربى

### التربية والثقافة العربية قبل الإسلام:

لا نختلف على أن التربية العربية ترتبط ارتباطا وثيقا بالحقبة التاريخية.. وبالظروف السياسية والثقافية والاجتماعية لهذه الحقبة.

وسوف نقصر الحديث هنا على أساليب التربية قبل الإسلام فى المنطقة العربيّة لكى نتخذها مدخلا واضحا للتغير الذى أحدثه الإسلام فيما بعد.

لقد كانت تتنازع منطقة الشرق الأوسط ثلاثة أنواع من التربية تحيط بالمنطقة العربية.. هى التربية الفارسية.. والتربية الإغريقية.. والتربية المسيحية.. وكان لكل نوع طابع يميزها ويعتمد على روح الفلسفة الممثلة لكل منها.

وبالمثل تميزت التربية العربية بفلسفة خاصة بها اختلفت فى أمور.. واتفقت فى أمور مع جاراتها من أنوع التربية.

إن المجتمع العربى قبل الإسلام كان يسوده النظام القبلى.. ذلك النظام الذى كان ينظر إلى النشء على أنهم (رجال صغار السن) يدل على ذلك قول شاعرهم عمرو بن كلثوم:

إذا بلغ الفطام لنا رضيع تخر له الجبابر ساجدينا

إلى هذا الحد يمكن للقبيلة أن تختار غلاما صغيرا.. لا رجلا محنكا خبيرا ليكون سيد القبيلة.. مما يدلنا على أهمية إعداد النشء وتربيتهم ليكونوا على مستوى المسئولية الجسيمة.

وتفيدنا أخبار هذا العصر بما يؤكد صدق هذه النظرة.. فقد كان الغلام يتدرب على أعمال آبائه ليسلك طريقهم فى كسب العيش وتحصيل اللباس.. واتخاذ المسكن.. والقدرة على مدافعة الأعداء.. ومنازلة الوحوش.

وكانت هذه التربية عند الحضر منهم خاصة تهدف إلى تخريج الأحداث فى الصناعات والمهن المختلفة.. كالهندسة والطب والبناء وغيرها من الحرف التى تساعد على توفير الرزق وتيسير العيش.

وفوق هذا وذاك يدلنا الشعر العربى - خاصة - كيف كانت التربية فى ذلك العصر تستهدف بث القيم الفاضلة والصفات الحميدة.. التى أشتهر بها العرب قديما.

وكانت الأسرة أهم وسائل التربية عند العرب البدو قبل الإسلام.. وكان الطفل يأخذ من أسرته وعشيرته طرقها الخاصة فى كسب القوت والعمل.. وأساليب الدفاع وطرق الإغارة على الأعداء.. وفنون العمل والصناعة مثل الصيد والرمى والقنص وإعداد آلات الحرب وعدل الأوانى وغزل الصوف وتربية الماشية وغيرها.

ولم يكن لدى الجاهليين - غالبا - طرق محددة فى تثقيف النشء.. وإنما كان الصغار يأخذون ما يصل إليهم من الآداب والأخلاق والمعارف يلقيها عليهم الآباء والأمهات والحكماء.. أو بما يتدبرونه من الشعر ومعانيه الحسنة السامية.

وربما كان فى الحضر نظام أكثر دقة لسهولة حياة البشر هناك.. فقد وجدت الأسواق العربية التى انتشرت فى المدن واختلف ألوان العمل بها.. وكان الشعر والخطابة والمجادلات من أهم أعمالها.. وكذلك وجدت المجالس التى رأسها الحكماء ورؤساء القبائل وحضرها الصغار والكبار على السواء.

وتدلنا أخبار العرب الجاهلية فى أساليب التربية الثقافية أن فن ترقيص الأطفال كان يمثل تيارا خاصا فى ساحة التربية العربية.. ذلك الفن الذى ينتمى إلى (الشعر الشعبى العربى) وهو أغانى للطفولة رقص بها العربى أولاده.. يدعو لهم.. ويحكى لهم ويلاعبهم.

وكانت تغنى ببساطة شديدة وفى إيقاعات قصيرة.. وتلتزم بالطبع لغة العرب التى تتخذ مستوى واحدا سواء أكتب بها الشعر للكبار أم كتب بها للصغار.. أم كانت أداة الحوار والغناء. وكانت هذه النماذج أو ما كان يفتح عليه الصغير عينيه.. مما يؤثر فى وعيه.. وتذوقه وخياله جميعا.

كما وجد أسلوب آخر تثقيفى مرح.. تعلق بألعاب الأطفال.. فقد وجد الطفل العربى لعبته فى بيئته الصحراوية.. والتراث حافل بتلك النماذج التى قالها الشعراء الكبار فى أعمارهم الصغيرة.. أو الكبيرة.. فصارت مثلا.. وصارت أغانى تنشد وتصاحب ممارسة اللعبة.. ومن ذلك ما قاله امرؤ القيس فى لعبة (الزحلوقة) أو (الأرجوحة).

كما لم يغفل الآباء والأمهات وصاياهم ومواعظهم وتوجيهاتهم لأطفالهم.. وتعددت أغراض هذه الوصايا من تعليم الأخلاق.. والبحث عن القيم.. والشجاعة.. والثأر.. والفتوة.. والعمل.. والكرم.. إلى آخر هذه القيم العربية الأصيلة.

كما عثر على محاولات لتعليم القراءة والكتابة.. والحساب.. وقواعد اللغة في المدن العربية التي تفوقت بحكمائها ومعلميها في هذا العصر.

والغريب في الأمر أيضا أن الصغار أنفسهم لم يكونوا بعيدين عن إبداع الشعر بالرغم من أن الشاعر كان يمثل في ذلك العصر لسان حال القبيلة.. ومن ثم كان الاعتراف به لونا من ألوان العذاب.. والقسوة في الحكم والنقد.

لقد أبدع – وهم صغار – شعراء كثيرون في مقدمتهم لبيد بن ربيعة وكعب بن زهير وطرفة بن العبد وغيرهم.. مما يدلنا على جدوى أساليب التربية الثقافية التي قدمها الكبار لأبنائهم في هذه البيئة العربية القديمة.. والتي كانت إرهاصا لعصر آخر سوف يشهد ثورة على الجهل.. والتراخي.. ويضع أسسه العلمية في التربية السليمة.

## التربية الإسلامية:

لم يكن هدف التربية الإسلامية دنيويا محضا كما كان عند الجاهليين أو كما عند الرومان واليونان والفرس مثلا.. ولم يكن دينيا كما كان عند الإسرائيليين في الصدر الأول.. وإنما كان غرضها دينيا ودنيويا معا.

وسوف يتأكد ذلك حينما نتتبع كيف عنى الإسلام بالدين والدنيا على السواء.. وبتدريس علوم الدين والشريعة.. إلى جانب علوم اللسان والتاريخ والجغرافيا والكيمياء والفيزياء.. والطب.. والهندسة.. والفلك.. فقامت بذلك دولة الإسلام وبلغت أوج عظمتها.. وأثرت فى حضارات الأمم الأخرى.

لقد بدأ الإسلام (بلسان عربى مبين) مما جعل للغة العربية مكانة كبيرة.. خاصة بعد أن اعترف القرآن بها وجعلها لغة الدين.. ولغة الحوار.. وجعل لقريش مكانتها الخاصة لأنها لغتها.. فاندمجت فيها أية لغة أخرى وأية لهجة غيرها.

وكانت العربية ركيزة الثقافة الإسلامية على مر العصور.. وقد كان للقرآن الكريم والحديث دور مهم فى التأكيد على إعجاز العربية وقيمها وتعليمها.. والتحدث بها.. فربطها بالعبادات وبالإيمان.. حتى أن ممارسة الصلاة وتلاوة القرآن الكريم أو أركان الحج مثلا لا تصح إلا بالنطق العربى.

ولهذا كانت العناية بتعليم الصغار لغتهم العربية فى مقدمة أسس التربية الإسلامية.

وكان للإسلام مؤسساته التى مارس المتعلمين تحصيل الثقافة من خلالها.. ولم تكن هذه المؤسسات مجرد أماكن أو قاعات أو ساعات.. ولكنها ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمناهج وبفلسفة الإسلام نفسها:

١- الكتاتيب:

لقد وجدت الكتاتيب قبل ظهور الإسلام..وإن كانت قليلة الانتشار ثم أصبح الكُتَّاب بعد ظهور الإسلام المكان الرئيسى للتعليم.. دعت إلى تأكيده حاجات التوسع فى نشر الإسلام.. وانتقال العرب فى حالة البداوة إلى حالة الحضارة.

والكتاب يعلم الصغير اللغة.. ومبادئها.. ويعلمها القرآن الكريم.. وكان الكتاب ملحقا غالبا بالمسجد.

٢- المسجد:

لقد كان المسجد مدرسة إسلامية نموذجية.. قامت فيه حلقات الدراسة وألقى فيه الشعر.. وشرحت فيه مبادئ الدين الإسلامى.. ومن أشهر المساجد الإسلامية على مر التاريخ: جامع المنصور.. وجامع دمشق.. وجامع عمرو.. والأزهر الشريف.

٣- القصور:

وجد نوع من التعليم الابتدائى فى قصور الخلفاء والعظماء.. ويسمى المعلم هنا (مؤدبا) حيث يتولى تأديب (تثقيف) الصغير حتى سن متأخرة من مراحل العمر.. فى ألوان المعرفة العلمية والعملية المختلفة.

٤- الصالونات والأندية الأدبية:

ظهرت ساذجة فى العصر الأموى.. لكنها انتشرت رائعة فى العصر العباسى بتقاليدها الخاصة.. وتنوع فيها ما يقدم من الأدب والشعر والعلوم والفنون والموسيقى والغناء.. وغيرها.

٥- المكتبات:

ظهرت المكتبات فى المدن والعواصم الكبيرة والتى تأكدت عن طريقها الثقافة العربية والترجمات وغيرها من الصلات الثقافية بين العرب وجيرانهم.. لقد عبرت هذه المؤسسات عن فلسفة الإسلام فى التربية.. بل كان المدرسون الذين يقومون على تثقيف الصغير فى مستوى علمى يؤهلهم لشغل هذه المكانة.. بل كان يشترط فى اختيار المدرس عدة شروط أهمها:

- استكمال عدته العلمية والتفرغ للتعليم.. والتنزه عن الطمع المادى.

- الإخلاص فى التعليم.. ومتابعة الصغير فى تحصيل العلم متابعة تدريجية.

- أن يكون متدينا متحليا بالأخلاق النبيلة.. كاظما لغيظه.. حليما.. وقورا رفيقا بطلابه.

- أن يكون عادلا فى الثواب والعقاب للتلاميذ.

وقد أدرك العلماء المسلمون أهمية الصلة بين الجسم والعقل.. ولهذا عنوا بالجسم والتربية البدنية كذلك.. وكان للعب مكانته فى التربية باعتباره الجانب الترويحى فى أوقات الفراغ.

## المدرسة الإسلامية تعليم وثقافة:

لم تفصل المدرسة الإسلامية بين التعليم والثقافة.. فقد كانت الثقافة جزءا من مناهج التعليم.

ولعل هذا كان موجودا فى الحضارات القديمة بأسـرها.. فقد كانت الحضـارة المصرية القديمة تجمع بين مناهج التعليم والمناهج الثقافية.. ولم تكن هناك دور نشـر أو مكتبات خاصة مفصلة عن المدرسـة.. تقدم الثقافـة وحدها.. ولهذا نتج عـن لقاء العلم والثقافـة حضارة رائعة.. وعقول مستنيرة شهد نها العالم القديم والحديث.

وظلت الحضارة العربية الإسلامية كذلك تغذى مناهجها التعليمية بالثقافة العامة فأقبـل عليها التلاميذ ينهلون بنهم وحب.. كل ما كان يقدم فى مؤسسات التربية المختلفة.. وسوف نتناول هنا مناهج التربية الإسـلامية.. وأراء رجال التربية المسـلمين فى هـذه المناهج وصولا إلى الفلسفة التى قامت عليها التربية الإسلامية..

## أ - المناهج والمبادئ:

تقوم الفلسفة الإسـلامية فى التربية على علوم الدين والدنيا معا.. وتأكيدا لهذه الفلسفة تبلورت المناهج والمبادئ فى ألوان الثقافة والتعليم الآتية:

١- اللغة العربية ومبادئها:

تلك اللغة التى تمثل اللسان العربى المبين.. لغة القرآن والحديث.. لغـة القومية والحياة اليومية.. والجانب المهم الذى قامت عليه الثقافة الإسـلامية بأسـرها.. واللغة العربية تقوم على معرفـة النحو.. وعلم الـكلام والكتابة والقـراءة.. تلك القواعد التى تلزم كل مسـلم يريد أن يعرف دينه و دنياه.

٢- القرآن الكريم:

ذلك الكتاب السماوى الذى تحدى العرب بإعجازه اللغوى وبما جاء فيه من أصول الدين والدنيا.. فبغير حفظ القرآن ومعرفة تفسيره لا يعرف المسلم دينه.. ولا يعرف أصول دنياه أيضا.. والقرآن ليس عبادات فقط ولكنه أدب وقصص وتاريخ وفلسفة وعقيدة وشريعة وفكر.. جمع كل ما يهم الإنسان لكى يمارس حياته فى سعادة وإيمان.

والصغير يبدأ بعد أن يتعلم اللغة فى تعلم القرآن الكريم.. قراءة ودراسة وتفسيرا وإعرابا.

٣- الحديث النبوى:

ويقصد به كل ما أتى به الرسول بقصد التشريع.. والذى إن تمسك به المسلم لا يضل أبدا..

٤- العلوم الاختيارية:

وهى الحساب والشعر وأيام العرب وأخبارها.. وعلوم العربية.. فمن الواضح أن هذه العلوم تختلف عن سابقتها فى بعدها عن الصفة الدينية.

وقد قسم بعض العلماء هذه العلوم إلى: علوم الملوك أى النسب والخبر وعلوم الفقه.. وعلوم التجار أى الحساب والكتاب وعلوم أصحاب الحرب أى درس كتب المغازى وكتب السير.

## ب - آراء المسلمين فى مناهج التعليم والثقافة:

لا يكاد يختلف العلماء فى شئ بالنسبة للكتاب والسنة واللغة

العربيـــة.. وما يتعلق بها من علوم النحو.. والكلام.. والكتابة.. والفقه الذى يبحث فى العبادات والشريعة.

أمـــا النوع الثانى من المناهـــج - أى المناهج العلميـــة الأدبية - فقد اجتهـــد العلماء فى تصنيفهـــا ووضع أوليات لها حســـب أهميتها لكل مجتمع أو إقليم إسلامى.

لقـــد زاد الاهتمام بهذه العلوم الاختيارية مع نمو الفكر الإســـلامى والفتوحات الإســـلامية وفتح آفاق جديدة للبحـــث والترجمة والنقل.. بـــدءا من النصـــف الأخير من القرن الثانى للهجـــرة حتى القرن الرابع على وجه الخصوص.

ففى تلك الفترة الحضارية الزاهرة قام نشـــاط علمى وفلسفى كبير.. وأســـست دور العلم وترجمت أعمال كثيرة من وإلى العربية.. ودرســـت علوم اليونان والهند وفارس إلى جانب علوم العربية.

بـــل قامت كشـــوف علمية مختلفة.. وشـــارك العلمـــاء والعرب فى مجالات العلوم المختلفة من رياضيات إلى الفلك إلى الكيمياء إلى الطبيعة إلى الطب إلى الموسيقى وغير ذلك.

وقـــد لخص الخوارزمى أنـــواع العلوم غير الإســـلامية التى لابد أن يدرسها الصغير المسلم فيما يلى:

- العلوم الطبيعية وتشمل: الطب بفروعه المختلفة.. ثم علم المعادن والمناجم والنبات والحيوان وكيمياء تحويل المعادن إلى ذهب.

- العلوم الرياضية وتشمل: الحساب والجبر والهندسة وعلم الفلك

والموسيقى والميكانيكا وعلم الآلات الرافعة.

- المنطق والفلسفة..

أما الفارابى فقد صنف العلوم فى خمسة أنواع هى:

١- فى علم اللسان وأجزائه.

٢- فى علم المنطق وأجزائه.

٣- فى علوم التعليم وهى الهندسة وعلم المناظر والنجوم.. والموسيقى.

٤- فى العلم الطبيعى والعلم الإلهى.

٥- فى العلم الكونى.. وعلم الفقه والكلام.

ويصور ابن خلدون حالة التعليم والثقافة فى الأمصار الإسلامية على هذا النحو:

- أما أهل الأندلس فيتعلم الولدان القرآن والكتاب من حيث هو -أى جعلوه أصلا فى التعليم- لكنهم يخلطون فى التعليم رواية الشعر والترسل وقوانين العربية والخلط إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة.

- أما أهل أفريقيا فيلتزمون القرآن والحديث.. ثم العلوم غير الإسلامية.

- وأما أهل المشرق فيخلطون فى تعليمهم كذلك.

ومن أشهر الرسائل التى قدمت فى هذا الصدد رسالة أبى الحسن القابسى - القرن الرابع الهجرى - سماها: أحوال المعلمين والمتعلمين..

ويهمنا من هذه الرسالة أن صاحبها نادى بأمرين سبق فيهما علماء التربية فى الغرب الحديث وهما: أن التعليم حق لكل صبى وواجب على الدولة.

وأن الدين الإسلامى يساوى بين البنت والولد فى التعليم.. وقد ظهر فى عالم التأليف التربوى علماء آخرون أهمهم: الغزالى.. وابن مسكويه.. والزرنوجى.. ومحمد بن سحنون.. وابن سينا.. وغيرهم.

وما يعنينا الآن أن الحضارة العربية الإسلامية لم تكن كما خيل لكثير من الباحثين حضارة أدبية فلسفية فحسب.. بعيدة عن الطابع العلمى أو التجريبى وإنما كانت حضارة استطاعت أن تحقق الوئام والانسجام بين الطابع الإنسانى الفكرى العام وبين الطابع العلمى التجريبى.. هذا الطابع الذى اتصفت به الحضارة خاصة أيام الرشيد والمأمون.

وقد شهد بذلك مستشرقون ذوو عدل فى آرائهم.. منهم «راسندل» فى كتابه (تكوين العقل الحديث) حيث يعتبر الطابع العربى التجريبى السمة المميزة التى ميزت الحضارة العربية عن الحضارة اليونانية..

ولسنا فى حاجة إلى عرض تراث العرب العلمى التجريبى فى شتى مجالات العلم.. وكذا التنويه عن رجالات هذا التراث.. فقد كتب فيه الكثير مما يخرج عن نطاق هذا البحث.

وخلاصة هذه الآراء أن مبادئ التربية الإسلامية تقوم على ستة أسس:

١- أساس دينى
٢- أساس خلقى
٣- أساس تثقيفى
٤- أساس تدريبى
٥- أساس مهنى
٦- أساس علمى

وهى مبادئ كما نرى جامعة شاملة لأى دستور تربوى فى أى زمان وفى أى بيئة.. خاصة إذا تأكدنا معا من أن التربية فى الإسلام تقوم فى ظل:

١- الحرية
٢- التطور
٣- تكافؤ الفرص

إطار تثقيفى للطفل العربى المعاصر:

سأحاول باختصار هنا وضع إطار عام يمكن أن تقوم عليه مناهج التعليم والثقافة للطفل العربى المعاصر.. وعلى ضوء البعد الإسلامى الشامل الذى سبق إيجازه.. وهذا المشروع يقوم على فلسفة الإسلام بجانبيها الدينى والدنيوى.. كما يلى:

١- اللغة العربية الفصحى.. أداة تقديم العلم والثقافة:

واللغة هنا هى الفصحى المبسطة.. أو هو المستوى البسيط الذى يلائم عقلية الصغير.. فاللغة العربية متعددة المستويات ما بين طرفى التعقيد

والتبسيط.. والكاتب المتمكن من لغته والمسيطر عليها سيطرة حقيقية.. يستطيع اختيار المستوى الملائم لقارئه.. وعلى العكس تماما يعجز الكاتب الذى لا يقبض على لغته فى اختيار ذلك المستوى.. بل يتعثر.. ويرتبك وتضيع منه تلك الإشراقات اللغوية.. وبقاع الجمال فيها.

القضية إذن محسومة.. إما لغة فصحى مبسطة.. وإما غيرها.. إما من يدعون إلى إيجاد لغة ثالثة تجمع - على حد قولهم - بين الفصحى والعامية فهم يقرون بذلك عجزهم.. بل يعملون على إبعاد الطفل العربى عن أصالته ودينه معا.

والواقع أن الطفل العربى يعانى انشطارا لغويا واضحا.. فهو يقرأ كتبه فى المدرسة.. وخارج المدرسة.. بالعربية الفصحى المبسطة.. فى شتى العلوم والفنون.. ثم يواجه أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية تحطم له هذا الحب وهذا الاتجاه إلى لغته.. بلغة غير عربية الفصاحة ثم حينما يهبط إلى الشارع تلوث أذنه لغة ثالثة.. بل لغات أخرى سوقية.. وإلى جانب لغة الفيديو والأغانى الهابطة.. وغير ذلك.

والخروج من هذا الانشطار هو القبض على اللغة العربية قبضا جيدا وتقديمها إلى الصغير فى إطار من الوعى.. والأصالة معا..

٢- القرآن والسنة:

وهما أساسا الفكر الإسلامى..

فالقرآن ليس كتاب عبادات فقط.. ولكنه يشمل القصص التى تحكى الأنبياء والرسل.. والقصص الذى تحكى عن الأمم السابقة والتاريخ

ويشمل الحيوان والنبات والعلوم والفلك.. والسير المختلفة والعزوات وغيرها من القصص الذى يحمل قيما ومتعة ومعرفة للصغير.

كما يأتى الحديث النبوى ليعرف المسلمين بتفاصيل ما أجمله القرآن الكريم وبآراء الرسول الكريم فى شئون الحياة الإسلامية فهو مصدر من مصادر الفلسفة الإسلامية فى التربية..

صحيح يوجد فى ساحة الطفولة عدد كبير من القصص الدينى.. ومن الأمثال القرآنية والنبوية.. ولكنها فى حاجة إلى المزيد من التنقيب والتذكير.. وإعادة العرض.. والتبسيط.. بل فى حاجة إلى المعاصرة فى الرؤية.. وإصلاح بعض المفاهيم التى اختلطت وأخذت بالتشكليات وتخلت عن عبقرية الفلسفة الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

٣- التراث:

والتراث هنا ستة عشر قرنا من الزمان.. إنه التاريخ الأدبى لهذه المنطقة العربية.. وقد آن الأوان لكى نعطى اهتماما خاصا لتراثنا العربى والإسلامى.. بما يتضمنه من قيم اجتماعية و أخلاقية ونفسية تصلح من الإنسان.. وتجعله يمارس بسعادة وهناء.

وقيمة التراث العربى والإسلامى فى إنه مجموعة من التجارب الإنسانية التى تؤكد إنسانية الإنسان.

وقد اختلف كثير من المفكرين حول أهمية استعادة التراث وإعادة صياغته للكبار والصغار برؤى عصرية.

وبعيدا عن الحجج للأطراف المختلفة.. يمكننا أن ننظر إلى التراث

على مرحلتين:

أ – مرحلة التنقية.. والترشيد.

ب – مرحلة إعادة الصياغة والتقديم.

وتتم هاتان المرحلتان فى ضوء ما يهم الطفل المعاصر.. وما يتلاءم مع عقليته وطبيعى أن تراثنا الطويل يشمل كثيرا من الصياغات المختلفة:

أ- إنه يشمل المأثورات الشعبية: أى القصص العربى والنوادر والحكايات.. وألف ليلة وليلة.. وكليلة ودمنة.. وحكايات لقمان والأمثال وغيرها.

ب- وهو يشمل أيام العرب وما حدث فيها من حروب غربية قيلت فيها الأخبار والقصائد وعرفت فيها العادات والتقاليد.. وأخذت القارات وهى أخبار يمكن أيضا أن تنقى ويختار منها ما يتلاءم مع عقلية الصغير.

ج- وهو يشمل القصص الدينى.. وأخبار الغزوات الإسلامية والفتوحات والفروسية العربية.. وغيرها.

د- وهو يشمل الأساطير العربية والملاحم.

وهى مادة صالحة لتقديمها إلى عقلية الصغير بصورة عصرية.. وليس نقلا حرفيا.. وللكاتب حرية الاختيار والاقتباس والنقل.. الحذف والإضافة شرط الحفاظ على روح الحدث أو القصة أو القيمة التى يقدمها العمل.

وقد تنبه الكتاب أخيرا إلى التراث.. فقاموا بتقديمه فى ألوان

مختلفة مثل القصة والشعر والمسرح وغيرها.. لكن الأمر يتطلب مزيدا من الخوض خلال صفحات التراث العريقة واستنباط أنسب المواد الصالحة لتقديمها إلى الطفل العربى المعاصر.

٤- الأدب:

والأدب العربى شعرا ونثرا كثير الصفحات..مملوء بالقصص والطرائف والتعبير الفنى.

وإذا كان الشعر ديوان العرب.. فهو أيضا أقرب بل أول الألوان الأدبية.. التى يعرفها الطفل فى سن مبكرة.. فالطفل يميل إلى الموسيقى منذ أول يوم يفتح عينيه على العالم.. والموسيقى والكلمة هما الشعر وهما الأغنية.. وهما الترقيصة، وهما المتعة أيضا.

وتاريخ شعر الأطفال هو تاريخ الشعوب جميعا.. والعودة إلى النبع واجب علينا اليوم.. والباب مفتوح للإسهام الشعرى فى صوره المختلفة على مستوى القصيدة أو المسرحية أو القصة.. وحيث تكون فى ثوب من البساطة والرشاقة والمتعة لوجدان الصغير.

ويمكننا عن طريق الشعر تقديم القيم.. والمبادئ الأخلاقية غير مباشرة استنادا إلى تأثير الإيقاعات الشعرية.. فى نفس الصغير ووجدانه.

ولا نستطيع أن ننكر إنجازات بعض الشعراء الرواد من أمثال محمد الهراوى الذى كتب ديوانا كاملا عن أنباء الرسل.. وأحمد شوقى الذى قدم القيم والسلوكيات فى قصائده الشعرية للأطفال.. ومن قبله محمد

عثمان جلال فى كتابه (العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ).. وغيرهم.

كما طلع جيل جديد من الشعراء.. يفخر كاتب هذا البحث بالانتماء إليه وجه الشعر إلى الطفل: قصيدة ومسرحية وقصة فى إصرار على الارتفاع بذوق الطفل.. وتنمية خياله وإبداعه.

ولا شك أن ساحة الأدب تتسع يوما بعد يوم.. وهى تتسع للجميع.. وليست قاصرة على فرسان بعينهم.. لهذا فنحن ننتظر إسهاما أكثر وأقدر على الإضافة.

٥- العلوم:

ولأن الإسلام يهتم بتقديم العلوم الطبيعية والحديثة إلى الطفل العربى باعتبار العلم معبرا جيدا للتخلص من الجهل والركود والانعزال عن العالم.. فإن البعد الإسلامى يفتح ذراعيه مرحبا بقصص الخيال العلمى.. التى يجسد الإنسان فيها أحلامه.. وقصص العلم المبسطة.. وسير العلماء العرب وغير العرب وكل جديد فى عالم الفلك والكيمياء والطبيعة والطب.. والهندسة والكومبيوتر.. بما يلعب دورا فى التنشئة الكاملة للطفل المسلم.

إن الاهتمام بالعلم ليس جديدا.. فقد مر بنا كيف وضعت تصنيفات العلوم فى مناهج التعليم والثقافة للأطفال المسلمين.. كما أن القرآن نزل لقوم يعقلون.. ولقوم يعلمون.. ولقوم يفقهون.. وما العقل إلا بالتفكير والعلم لا يكون إلا بالبحث.. وما التفقه إلا بالحوار والاقتناع واليقين.. وكل هذا يتعلق بمناهج العلم النظرية والتجريبية على السواء.

لهذا فإن الاستزادة من المعرفة العلمية هى جزء من عمل المسلم فى الحياة ولا شك أن الإسلام دين العلم والمعرفة.. ودين القوة والثقافة.. ودين الجدل واليقين.. لهذا كان العلم له تقديره فى الفلسفة الإسلامية.

٦- الفنون:

هناك قيم تشكيلية جمالية فى الفن الإسلامى.. ويمكن النظر إليها والتركيز عليها إضافة إلى القيم الأخرى التى تنتمى إلى الفنون المختلفة(*).

ومن أهم العناصر التشكيلية الخط العربى.. نظرا لصفاته الكامنة التى تتيح له القدرة على التعبير عن الحركة والكتلة بمعناهما الجمالى.

ويلعب الخط العربى دورا أساسيا فى العناصر الزخرفية.. كما أن للخط العربى أنواعا وتشكيلات جمالية خاصة لا تتوافر لأى خط آخر عربى.. وقد رأينا علماء المسلمين يؤكدون على أهمية تعليم الخط العربى.

ومن القيم التشكيلية للفن الإسلامى.. اللون.. حيث تستخدم الألوان الزرقاء والخضراء والذهبية بكثرة إلى جانب مساحات محدودة من الألوان الحمراء والصفراء والبنية.. كما نشاهد فى المنمنمات والتحف الزجاجية والخزف والقيشانى.. واللون الأخضر والأزرق هما ألوان السماء والماء والسهل الخصب.. والفضاء.. وتعطى إحساسا باللانهاية.

كما أن الفن الإسلامى من أغنى الفنون فى التنويع الموجود فى سطوح المبانى أو التحف أو الأعمال الفنية المختلفة.

---

(*) انظر كتاب: الفن الإسلامى- أبو صالح الألفى - دار المعارف ١٩٧٤م.

كما عنى الإسـلام بفنون الإيقاع والموسـيقى.. ومن ثم كان الوزن فى الشعر.. والإيقاع فى تلاوة القرآن.. والسيمترية فى العمارة.. والتوازن فـى التصوير.. ومن يطلع على مخطوطـات مقامات الحريرى يتأكد من قوة تأثير الفن الإسلامى وعناصره الإيقاعية.

إن الفن الإسـلامى.. خطا ورسما وزخرفة ونحتا وإيقاعا ونسيجا.. يمثل عالما ثريا من الإحسـاس بالجمال والإبداع.. فإذا نحن استطعنا أن نقدمه إلى صغارنا.. فى بسـاطة.. اكتسبنا من وراء ذلك إضافة حقيقية إلى الوجدان.. وارتباطا وثيقا بالأصالة والإبداع.

ولا شـك أن إضافة الفنون الإسـلامية إلى مناهج التعليم والثقافة.. تمثل إضافة حقيقية خاصة حينما تتعانق الكلمة مع الرسم أو الزخرفة أو الآية القرآنية.. فى كتاب واحد.

كما أن الفنون الإسـلامية قادرة على تقديم القيـم والمبادئ بطريقة جميلة.. ويمكن اسـتخدام الفن الإسلامى كخلفيات فوق المسرح.. أو فى لوحات تعليمية.. أو فوق شرائط كاسيت.. أو فى بطاقات مصورة.. ولن يحدث ذلك بغير الإيمان بقـدرة هذا الفن على العطاء والمتعة.. وتقديم القيم الجمالية.

## الخاتمة:

لقد حاولنا فى هذا البحث أن نقدم أبرز المعالم فى التربية الإسلامية الثقافية.. منذ بدأ علماؤها يؤكدون مبادئها فى رسـائلهم.. يستنبطون ويكتشفون فى سبيل الوصول إلى نظرية لفلسفة التربية الإسلامية.

وفـى ضوء هذه المبادئ والمناهـج والآراء المختلفة .. حاولنا أن نقدم إطـارا أو مشـروعا لما يمكن أن يكون عليـه أدب الأطفال أو ثقافة الطفل المعاصر مستعينين بالبعد الإسـلامى الذى يشمل جناحى الفكر الدينى والفكر الدنيوى.

ونظرة إلى المسـتقبل تدفعنا إلى الإخلاص فـى تأكيد هذا الإطار فى كل مـا نكتب ونحـن على يقين من قدرة الفكر الإسـلامى على الإضافة الصالحة والممتعة والجميلة والقوية التأثير فى وجدان الصغير.

ولا أظن أن هناك موقفا حادا أو معارضا بين ما نقدمه هنا وبين الفكر العالمـى فى مجال الطفولـة.. فلا يختلف أحد فـى أى مكان على ظهر الأرض علـى ضرورة التربية السـليمة للطفل من واقع سـيرة صالحة.. وثقافة جادة صالحة.. وفكر مستنير يرسم له مستقبله.

إن من مبادئ الإسلام مثلا التعرف على الأقوام الأخرى.. والتعرف على اللغة تعنى ضمنيا التعرف على الثقافة والفكر والعادات والتقاليد وغير ذلك مما يضيف إلى العقل والوجدان معا.

والتعـرف هنا يعنى تبنى هـذه المعرفة أو هذا الفكر.. لكنه يعنى المعرفـة من أجل الأخذ بأجمـل ما فيها.. وطرح ما لا يناسـب ثقافتنا وبيئتنا وديننا.. ومن ثم فعلينا أن ننظر إلى هذه المادة المستوردة الجاهزة بعين النقد وعين الاختيار والانتقاء فى جميع وسائل الإعلام المختلفة.

وأعتقد أن البعد الإسلامى حينما يحيط.. ويؤمن هذه الثقافة المقدمة للطفل.. فإنه يضمن نقاء ما يقدم.. ويضمن الاستفادة بالمعرفة الإنسانية

أين تكون فى ضوء كثير من المعايير الدينية والدنيوية معا..

إنهـا دعوة لن تتوقف لكل كاتب قادر على عمل هذا المزج الجميل بين ثقافتنا العربية الإسـلامية وبين ثقافة العالم.. لكى نضمن تنشـئة أطفالنا على القيم.. والمبادئ.. وعلى حب الله والوطن والإنسان أين يكون.

* * *

# رسوم الأطفال
# ترف أم ضرورة؟

فى مجال ثقافة الطفل وفنونه.. أفضل أن أجيب عن سؤال مهم هو:

– ماذا يريد أطفالنا.. لا.. ماذا نريد نحن لأطفالنا؟

وطبيعى أن تتضمن الإجابة عن هذا السؤال التعرف على احتياجات الطفل السيكولوجية.. واحترام هذه الاحتياجات.. ومحاولة إشباعها بكل ألوان الإشباع.. ومن بين هذه الألوان الإشباعية: الفنون.. رسما وموسيقى وكتابة ولعبا.. ثم مسرحا وسينما.

ومن هنا يمكن أن نبدأ بسؤال عكسى: ماذا يرسم الطفل.. ولماذا؟

وإذا استطعنا أن نجيب عن هذا السؤال.. وصلنا إلى جوهر القضية.

جربوا معى أن يجلس أحدكم إلى مكتبه فى بيته ويمسك قلما.. ثم يدع طفله يدخل عليه.. إن الطفل سوف تثور فى نفسه غريزة المحاكاة.. فيطلب قلما وورقا لكى «يكتب» هو الآخر.. وتكون كتابته فى النهاية شخبطة تلقائية.

إن الأطفال منذ قديم الأزل يخططون فوق السطوح الترابية والرملية ويشخبطون على الورق والألواح.. حتى إنهم يسعدون بالتخطيط على أجسادهم بالألوان المختلفة.. ويشكلون من الطين تشكيلات ودمى يتحدثون إليها ويتحاورون ويلعبون معها.

وقد يحدث أن ينهر الكبار صغارهم عن الشخبطة.. ولا يتيحون لهم الفرصة لكى يعبروا عن أنفسهم ويخرجوا طاقاتهم الفنية المختزنة.. أو نراهم يعلمون الأطفال الرسم بأسلوب آلى جاف يتنافى مع احتياجات الطفل وذاتيته وطبيعته فيصاب الطفل بالإحباط والعدوانية.

ويؤكد علماء النفس أن السلوك فى معظمه مدفوع إلى إشباع حاجات بعينها.. سواء أكان الإنسان واعيا لذلك أم غير واع.

ولابد أن الدافع الرئيسى لنشاط الطفل الفنى فى مراحله المبكرة هو مجرد المتعة واللذة وإخراج الطاقة والتعبير عن النفس.

ولا شك أن الشخبطات الأولى للطفل تشبع حاجاته الأولية وتعتبر النواة الأولى لإحساس الطفل بالجمال فيما بعد.

إن الفنون البدائية التى وجدت على جدران الكهوف تؤكد سلوكيات الإنسان البد ئى ومن ثم فإن تلك الفنون حينما يمارسها الطفل فإنما تعبر أيضا عن سلوكياته المنقوصة.. أى إنها فنون قد تكون موضع سخرية الكبار وتهكمهم.. لكنها فى الوقت نفسه موضع زهو وفخر من الطفل الذى قام بهذه الرسوم أو على حد قول أحد علماء النفس: أعظم ما يبدعه الطفل هو أخطاؤه.

وقد أخطأ الكبار حينما حكموا على رسوم الأطفال بمقاييسهم الفنية.. ومدى محاكاتها لما هو كائن فى الطبيعة.. وتناسوا أن من خصائص رسوم الأطفال: التسطيح والخلط بين المسطحات والمجسمات فى حيز واحد.. والمبالغة والحذف والإهمال.. والخطأ فى التلوين.. والنسب والخطوط وغير ذلك.

وتتوقف الفروق الفنية فى رسوم الأطفال على عدة عوامل منها الموهبة الفنية والذكاء والتخيل والثقافة الخاصة والبيئة التى يعيش فيها الطفل.. ومعاملة الوالدين.. والمدرس والأصدقاء.

ولنا تجربة عملية من خلال ورش العمل التى نقيمها فى فرع مكتبة مصر بالزيتون حيث تتضح هذه الفروق الفنية فى التعبير عن الموضوع الواحد.. وقد كان لبعض الأطفال رؤاهم الخاصة التى أدهشتنا فى التعبير.

وترتبط الرسوم باللعب فى السن المبكرة ويجد الطفل نفسه مدفوعا إلى التسلية والمتعة.. وإثبات ذاته.. خاصة إذا كان أمامه مجال للمنافسة.

وللون إغراء عند الأطفال.. فهو يثير انتباههم فى سن مبكرة.. لكن العلماء يؤكدون أن اهتمام الطفل بالألوان وقدرته على التمييز بينها يختلف من مرحلة عمرية إلى أخرى.

فعند الأطفال الرضع نجد أهمية التنبيه إلى اللمعان والبريق الذى يميز بعض الألوان ومن سن ستة أشهر إلى أربعة عشر شهرا يميل الأطفال إلى الوصول إلى جسم ملون أكثر من الوصول إلى جسم رمادى.

أما طفل السنة الثالثة فهو يعطى أهمية أكثر للشكل المتفق فى اللون مع شكل آخر.. وحينما يصعد الطفل فى مراحله العمرية يعطى أهمية للشكل أكثر من اللون وخلاصة القول هنا.. إن الطفل فنان بطبيعته يمتلك القدرة الذاتية الخلاقة للتعبير عما حوله من مظاهر عالمه المحسوس فى تلقائية حرة.. ويستخدم الألوان للتعبير بها أيضا عن حبه وكراهيته

وخوفه وسعادته.. وقوته وضعفه وقلقه واطمئنانه.. أى أنه يعبر عن انفعالاته الخاصة التى تعكس أوامر الوالدين وعقابهما.. وتوجيهات المدرسين والخوف من زحام الشوارع.. وحبه للجمال المفتقد فى الطبيعة.

إن فرصة تعليم القراءة تبدأ فى الصغر كما نعلم، وتبدأ بالإشارة إلى الصور ومحاولة فهمها.. ومن ثم فإن الصور فى المرحلة الباكرة ينبغى أن تكون صورا متحركة حتى يستوعبها الطفل وتشبع له غريزته فى اللعب والحركة والجرى والقفز.

إنه يقرأ الصورة لأنه لا يعرف الحروف.. لكنه يستطيع أن يحول هذه الصورة إلى موقف أو قصة قصيرة مفهومة.. فإذا رأى قطا يجرى وراء فأر.. أدرك لماذا يجرى.. ولماذا يطارده.

والصفحة البيضاء بلا رسوم لا تعطى شيئا غير الفراغ.. ومن ذلك فإن الصورة تترجم للطفل عالمه الحقيقى المحسوس الذى يعيشه.. وينمى خياله وإدراكه.. ويجعله يحاكى هذه الرسوم بنفسه.

إن العمل الأدبى الموجه للطفل بلا رسوم عمل ناقص لا يكتمل بغير الصور المعبرة عن هذا العمل.. وهى ليست إضافة يمكن التخلى عنها لكنها ضرورة لأنها تثقف الطفل وتنمى خياله وإدراكه.. وتجعله يحس الجمال ويدربه على التلقى الجمالى والاستمتاع به.

وكما ذكرنا فإن التعرف على احتياجات الطفل الفنية.. ومحاولة إشباعها فى الكتب الموجهة إليه.. هى إشباع لميول الأطفال ورغباتهم وتنمية لعقولهم وتعميق لإحساسهم بالجمال.

إن الصـورة الملونة المشـرقة تمثل منطقة جذب نفسـى ووجدانى للطفـل للدخـول إلى عالم الكتـاب.. وغلاف الكتاب يقـود الطفل إلى داخله أو ينفره منه.. واسـتخدام الفنان وفهمـه لاحتياجات الطفل الفنية فى سنوات عمره المختلفة يمثل المدخل الحقيقى لإقناع الصغير بما يقدمه له.

ملاحظة أخيرة.. تتعلق بعلاقة الرسوم بالمرحلة العمرية المختلفة.. حيث تمثل الرسـوم فى المراحل الأولى مسـاحة أكبر من الكلمات وكلما صعدنا فى مراحل القراءة.. توزعت أو تقلصت مسـاحة الصورة وزادت مسـاحة الكلمات وهنا نترك للقارئ الصغير حريـة التخيل.. والمتعة فيما يقرؤه.

* * *

# المسرح الشعرى للأطفال
# بين الأصالة والمعاصرة

## الشعر.. والمسرح:

بدأ المسرح شعرا.. تؤكد ذلك تلك التراتيل القديمة التى كانت تتلى فى المواسم الدينية للآلهة فى الحضارات العريقة.. ثم تطور الأمر لتأخذ التراتيل شكلا مشتركا بين جماعات مختلفة.. بما يجعلها أداة مؤثرة فى الوجدان يسهل حفظها وترديدها.

ويؤكد تاريخ المسرح كذلك أن الفعل ورد الفعل يمثلان جوهر هذا الفن.. مما جعل بين الباحثين من يعتبر المسرح وسيلة تعليمية.. فهو مكان يتجمع فيه نشاط المتفوقين والمتخلفين والمتوسطين من البشر.. ومن خلال ما يدور بين هذه الفئات العقلية يحدث التأثير.. ويجد المتلقى غالبا ما يبحث عنه متمثلا أمام عينيه ومتسللا خلال آذانه إلى وجدانه.. بما يجعله يعتقد أنه الحقيقة.. لذا وجدنا المأساة الصريحة، والملهاة الصريحة.. ووجدنا ما يجمع بينهما كذلك بما يثير الضحك أو الانفعال.

أما دور الشعر فى حمل مضامين المسرح.. فهو أمر يشهد على أهمية التاريخ.. فالشعر موسيقى ـ فى البداية ـ والإنسان بطبعه يميل إلى عنصر النغمة الذى هو محور الكون بحيث يمكننا أن نرى الكون (كيانا

نغميا).. تبوح به الطبيعة والنظام والتناسق.. والإنسان أيضا كذلك كيان متناسق.. يجد فى الموسيقى حلمه وأحيانا خلاصه وتطهيره.

والشعر أيضا من الفنون الجميلة.. بل ينتمى إلى فنون الزمان (الجمال المتحرك) التى تشمل الموسيقى والشعر والغناء والرقص.. على حين تشمل فنون المكان (الجمال الثابت) العمارة والتصوير والنحت.

ويقترب جوهر الشعر من جوهر الموسيقى فى محاولته تحويل الواقع إلى حلم.. وفى ترطيب الحلم بالصورة والإحساس لعله يصبح واقعا.. وهنا تتبلور أهمية الكلمة، ويصبح لها المقام الأول لحمل الأحاسيس والتأثير النفسى.

وإذا كان المسرح يجىء فى مقدمة وسائل الاتصال.. فهو وسيلة راقية ومؤثرة فى الجماهير.. بما له من خاصية مباشرة وفورية.. فى مخاطبة العقل والوجدان معا.. كما أنه يعطى النموذج والمثل والقدرة بشكل أكثر تجسيدا.. مع احتفاظه بصفة العمق والتحليل معا.

وهكذا تتعانق عوامل الفن المختلفة.. الشعر.. الموسيقى.. الأداء.. فى فعالية التأثير والاتصال.. ومن ثم فإن من المؤكد أن تكون أكثر تأثيرا حينما توجه إلى الطفل، تلك الشريحة الاجتماعية التى تنفرد بكثير من القابلية للتشكيل والاندماج والإحساس الجمالى.

ولهذا فإن مسرح الطفل ضرورة حتمية الوجود.. من أجل تنمية السلوك الإبداعى عند الأطفال.. ومن أجل تعديل سلوكهم، كذلك بما يوجهه من قيم ومتعة إلى وجدانهم الصغير.

## الدراما والطفل:

لقد كشفت الدراسات المختلفة فى مجال دراما الطفل.. أن الطفل يولد مزودا بأجهزة وعى يمكنها استقبال الفنون.. كما أنه يميل إلى التعلق بالأعمال التى تشبع لديه حاجة أساسية.. وهو يستجيب بشكل أكثر عمقا لما يقع فى دائرة اهتمامه.. فإذا قُدم له عمل مسرحى لا يتناسب واحتياجاته.. أو يكون غير ملائم لمستوى إدراكه ووعيه.. انصرف الطفل عنه بلا عودة.

والطفل يتميز بطلاقة الخيال.. وبالقابلية للتشكيل.. وبالاستعداد للاندماج، وبالقدرة على المحاكاة.. وبالإحساس الجمالى الغضّ، وبالاستجابة النفسية والإبداعية لما يشاهده.

والطفل من حيث وجوده الاجتماعى.. يقوم بدور.. بل بأدوار وظيفية غاية فى الخطورة.. تجعله مؤثرا فى حركة الجماعة:

- فهو أولا يمثل الرباط الأسرى.

- وهو بالنسبة للأسرة امتداد نفسى وفيزيقى.. بل هو حلم الوالدين فى المستقبل.

- كما أن كثيرين ينظرون إليه على أنه طاقة إنتاجية تساهم فى بناء الكيان الاقتصادى للأسرة سواء أكان منتجا أم مستهلكا.

- أما سلوك الوالدين فهو مرتبط إلى حد كبير بسلوك الأبناء.. بمعنى أن سلوك الكبار قد يتحدد فى كثير من الأمور.. بناء على ما يصدره الأطفال من مثيرات.

فـإذا ما نظرنا إلى علاقة الطفـل بالجماعة من خلال وجوده المؤثر.. وجدنـا الطفـل يضيق بمـا يقدمه إليـه الكبـار، من المـواد الجاهزة والتوجيهات والنصائح المباشرة التى تحد من حركته وسلوكه وطموحه الخاص.

ومن ثم تنمو هذه العلاقة من خلال عادات الطفل فى أثناء اللعب.. وليست هذه العادات إلا محاكاة.. أو تمثيلا أو ممارسة ذاتية للتخيل.

لهـذا فإن التمثيل ليس شـيئا بعيدا عن محيط السـلوك بالنسـبة للطفل.. وهو يمثل قنـاة اتصال جذابة، تمر من خلال معطيات الثقافة والترفيه والتأثير والتأثر والنمو النفسى جميعا.

الدراما إذن ـ بمعنى الفعل ورد الفعل ـ هى ترجمة حقيقة لسـلوك الطفـل.. وإشـباع لحاجاته الأساسـية.. وإزكاء لنمـوه وإعلاء لروحه ومرحه.. ومن ثم فالمسـرح يمثل أهمية كبيرة بالنسبة للصغير.. وكلما نجحنـا فى ملء هذا الوعاء بما يفجر فى الطفل طاقات الإبداع والمتعة.. كان المسرح أكثر إيجابية من أى وسيلة أخرى من وسائل الاتصال.

## الطفل والشعر:

من المسلَّم به أن الإحساس بالجمال أمر اعتبارى شخصى يختلف فيه الناس جميعا.. وتتوقف قدرتنا على هذا الإحساس على كثير من العوامل والفروق الشخصية والمكتسبة من التجارب التى يعيشها الإنسان.

وعلاقـة الطفل بالجمال علاقة حميمة.. قد تبدأ من عينيه.. حينما ينبهر لما قد يثيره.. ويضحكه ويمتعه.

لكن حاسة السمع فى السن المبكرة تعتبر أكثر الحواس إرهافا لديه فهو يتلقى بسمعه ـ تلقائيا ـ مجموعة متباينة من الأصوات التى لا تقع تحت حصر.. وهو لا يزال فى مهده.. غير قادر على الإدراك البصرى لمن حوله.

وأول صوت يدركه الطفل هو أمه.. خاصة حينما يبكى.. فتندفع إليه، وتربت فوق صدره، أو تمسك بمهده الصغير فى هزة رقيقة مصحوبة بموسيقى صادرة من قلبها.. تنسجم مع إيقاعات المهد الصغير.. وتسمى هذه الأنغام العذبة التى تصدرها الأم (المناغاة).. ومن العجيب أن الطفل سرعان ما يكف عن البكاء لإحساسه بالأمان وإحساسه أيضا أن شيئ جميلا هبط عليه وغزا قلبه بمجيء أمه.

وتصغى أذن الصغير إلى الموسيقى والكلمة.. فيرقص على الشعر.. ويلعب به.. ويغنيه لأنه يقترب من مشاعره الداخلية المنسجمة.

لهذا يؤكد رجال التربية والتاريخ أن الشعر أسبق إلى الطفل تأثيرا من النثر.. ومن ثم فإذا أحسنا تقديمه إلى الطفل.. فى صياغات مناسبة.. كان عظيم الجدوى.

## المسرح الشعرى:

من الخطوات السابقة يمكننا أن نؤكد بعض الحقائق:

– إن الطفل يميل إلى الجمال.. ويشعر به.. ومن ثم يحب أن يرقص على الموسيقى والكلمة باعتبار الرقص فنا جماليا.

– إن الطفل له حاسة تذوق.. وخيال.. يمكن أن يحاكى.. وأن ينفعل وأن يعدّل من سلوكه كلما كان الفن الذى يقدّم له عظيم الجدوى.

– أن المسرح يعتبر من أنجح أدوات الاتصال للطفل.. حيث يشبع حواسه خاصة السمع والبصر.. ثم الوجدان.. بما يحمله من قيم ومتعة وجمال.

– إن تعانُق الدراما والشعر فى توازن معقول يمكن أن يخلق وجدانا ناميا مبدعا للطفل.

ولإيمانى بإيجابية أسلوب المسرح الشعرى.. أود أن أشير إلى الإنجازات القليلة النادرة فى هذا المجال وأهمها:

– تجربة الشاعر محمد الهراوى (١٨٨٥م ـ ١٩٣٩م) هذا الرجل الذى يعد أحد رواد شعر الأطفال الذين أخلصوا لهذا الفن.. وتوج ديوانه بخمس مسرحيات أو (روايات تمثيلية) كتب منها مسرحيتين بالشعر التقليدى هما: الذئب والغنم.. المواساة ـ والمسرحيتان.. أو (الروايتان) قصيرتان.. إحداهما على لسان الحيوان.. وفيهما كثير من بدائية الفن.. لكنهما محاولتان تعدان إرهاصا أو استشرافا، ودعوة لمن يأتى بعد الهراوى ليضيف الجديد.. ويعطى إيقاع العصر.

– ثم تمضى السنون بعد هذه المحاولات الأولى دون إضافة حقيقية.. وحتى أحمد شوقى نفسه.. لم يكتب مسرحا للأطفال بالرغم من إبداعه للكبار فى هذا المجال.

– أما المحاولات المعاصرة فى المسرح الشعرى.. فلا تكاد تمثل تيارا حقيقيا.. بالرغم من وجود اجتهادات على أيدى سليمان العيسى.. وحسيب كيالى.. وخليل خورى وغيرهم من سوريا.. وإبراهيم شعراوى..

وسمير عبد الباقى من مصر.. وعبد الرازق عبد الرحمن وفاروق سلوم، وفاروق يوسف من العراق.

ولا أريد أن أقوم كتابات هؤلاء الأصدقاء.. لكنّ ما أود أن أؤكده هنا أنها محاولات جادة على الطريق تقاوم فى سبيل حفر مسار مؤكد لهذا التيار.

وقد أوليت تجربة المسرح الشعرى للأطفال اهتماما خاصا.. بدأ معى منذ عام ١٩٨٢م بالمسرحية العرائسية (حكايات وأغانى كامل كيلانى) التى قدمت ثلاثة نصوص (مسرحيا).. هى: جحا والبخيل.. عبد الله والدرويش.. حى بن يقظان.. ثم توالت الأعمال بعد ذلك عدد وفير.

وفى واقع الأمر.. لم يأت اهتمامى هذا من فراغ.. لكننى نتيجة استقصاء ما يقدم للطفل.. وضعت أمامى الأهداف التالية لا أحيد عنها:

١- أن تسد هذه المسرحيات نقصا فى مكتبة الطفل العربى.. وتضيف هذا اللون الهام الذى تأخر وجوده كثيرا.. فهى مسرحيات شعرية باللغة العربية الفصحى.

٢- أن تستمد المسرحيات مادتها من حكايات التراث العربى العريق.. فى محاولة لكسر حصار القوالب الجاهزة المترجمة.. وربط الطفل العربى بماضيه وكنوزه الثمينة، بعد أن تغرب عنه طويلا.. وقد قدمت المسرحيات المضامين والحكايات والأمثال التاريخية العربية والإسلامية التى تدعو إلى القيم الخالدة التى لا تتغير بتغير الزمان

والمكان ومنها: الفروسية.. الشجاعة.. الوفاء بالوعد.. الأمانة.. الكرم.. التسامح.. المحبة.. الإخلاص.. التعاون.. السلوك الحسن.. إلخ.. وأيضا قيمة الإيمان بالله تعالى.

كما قدمت بعض الشخصيات التاريخية العربية.. مثل جحا فى فكاهاته.. وأشعب فى مواقفه المختلفة.. وحاتم الطائى فى كرمه.. وجوده.. وغيرها من الشخصيات، وكذلك لم تغفل هذه المسرحيات حكايات الحيوان.. وهذا جانب مهم يحمل فلسفة المتعة والقيمة معا.. فالطفل بطبيعته ينجذب إلى الحيوان.. وعن طريقه يمكن أن يتعلم الكثير.. ولهذا فإن حكايات كليلة ودمنة.. وإيسوب.. ولقمان.. وحكايات الحيوان العربية التى وردت فى المصادر العربية يمكن أن تعطينا مادة قيمة.. وتقدم بأسلوب العرائس، أو الأقنعة على المسرح.. وقد راعيت فى حكايات الحيوان أن يحمل الموقف قيمة تؤكد أهمية الحيوان للإنسان وتطلب ذلك بالضرورة تعديلا كبيرا.. وإضافات ورؤية مختلفة للحكايات.. بما يتلاءم مع حب الطفل للحيوان.

٣- تتخذ هذه المسرحيات أسلوب اللغة الفصحى المبسطة والقريبة من وجدان الطفل.. وهو هدف ينبغى أن يسعى إليه كُتاب الأطفال، ليعود الطفل إلى (شخصيته) اللغوية الحقيقية.. خلاصا مما يشعر به من (انشطار) لغوى.. نتيجة حصار أجهزة الإعلام.. والتعامل اليومى مع الشارع العربى.

وهنا يحسن أن نشير إلى دعوة ظالمة على ألسنة بعض الكتاب..

للكتابة بما يسمى «باللغة الثالثة».. وهم يعنون بها لغة تجمع بين العامية والفصحى.. وأرى أن هذه الدعوة تتميز بالمراوغة الشديدة.. فهى تريد أن تصرف الطفل عن لغته الأم.. وعن شخصيته القومية.. فمن المعروف أن اللغة الفصحى تتميز بالثراء والترادف والمستويات التى تتراوح بين البساطة والتعقيد.. والقضية تكمن فى مدى سيطرة الكاتب على العربية.. فإذا كان الكاتب مسيطرا ومتمكنا من لغته، استطاع بلا جهد أن ينتقى ويختار أبسط الألفاظ وأقربها لأى مرحلة من العمر.. أما إذا ضعفت قبضته على اللغة.. لجأ إلى العامية أو الدعوة المشبوهة تلك لكى يهرب من القيم والقدرة على العطاء..

وأرى أن اللغة بهذا التصور.. يمكن أن تبدأ فصحى منذ مرحلة رياض الأطفال بلا صعوبة.. وأود أن أشير هنا أيضا إلى تجربة خاصة تؤكد ما أرمى إليه.. حيث صدر لى ثلاثة كتب عن طريق التربية والتعليم لمرحلة رياض الأطفال تتضمن عددا كبيرا من الأشعار بالفصحى لهذه المرحلة، والتى قام بتلحينها تربويون متخصصون فى موسيقى الطفل.. مما يؤكد قدرة اللغة على الوصول إلى مرحلة دون صعوبة إذا أخلص الكاتب.. وسيطر على لغته.

٤- أن يكون الشعر فى هذه المسرحيات مبسطا.. يعتمد على إيقاعات متكررة (الشعر الحديث) فى سياق الحوار بين أبطال العمل.. ومطعما بالأغانى التى تلتزم مجزوءات البحور.. وتغيير القوافى.. كسرا للملل.. ووصولا إلى وجدان الصغير.. وهذا أيضا من شأنه أن يخدم حاسة الطفل الفنية.

٥- أن تتميز الموسيقى والألحان بالإيقاعات البسيطة غير المعقدة.. والتى يسهل للطفل ترديدها أو الرقص عليها دون صعوبة.. مما يمتع الوجدان.. ويجعل الطفل كائنا متذوقا.. يشعر بالجمال ويعيش عوالمه المجنحة.

٦- تعتمد المسرحيات على وجود راوية مع الأطفال يربط بين الأحداث.. ويعلق عليها.. وأرى أن هذا الأسلوب يستجيب لحاجة الطفل إلى الاقتناع بما يقدم له.. ولن يأتى هذا بطريقة مباشرة.. أو يجسد معلومات أو حكم أو مواعظ يعافها عقل الصغير وينفر منها.. ولكن بطريقة فنية.. ومن شخصية محببة له.. تمثل الأب أو الجد.. أو الأم أو الجدة فى صورة الراوية.

ولن يكون دور الأطفال سلبيا هنا.. لكنهم يمكنهم أن يؤدوا أدوارا إيجابية مثل المشاركة بالرأى أو النقد.. بحيث يتحقق لهم الاقتناع والمتعة والمشاهدة الكاملة.. وقد حرصت لتحقيق ذلك على إبراز دون الطفل مع الراوية فى كل ما قدمت.. وأنهيت المسرحيات بمناقشة حول العمل.. وما الذى يتعلمه الأطفال منه.. وبهذا نصل مع الطفل إلى الحكمة والمعنى من العمل المقدم.

٧- تهدف المسرحيات إلى تعريف الطفل بخصائص فن المسرح وإمكاناته الفنية (الستار.. الديكور.. الملابس.. طريقة الأداء..إلخ)، من خلال تعانق الكلمة مع الصورة (فى الكتاب المطبوع) ومن خلال المشاهدة الممتعة (على خشبة المسرح) يتعرف الطفل على هذا الفن الجميل.. ويرتبط به..

٨- المسرحيات تتيح الفرصة كاملة أن يؤديها الأطفال فقط.. أو يشترك معهم الكبار.. أو يؤديها الكبار فقط.. وإنى آمل أن يأتى اليوم الذى يقتصر أداء هذه الأعمال بواسطة الأطفال أنفسهم فقط.

٩- تهدف المسرحيات كذلك إلى إحياء المسرح المدرسى.. على أسس جديدة تجمع بين الشخصية العربية والفن الجميل.. ولهذا فإن مدة هذه المسرحيات لا تزيد عن ٤٥ دقيقة فى المتوسط.

## مستقبل المسرح الشعرى للأطفال:

أعتقد أن عوامل نجاح المسرح الشعرى للأطفال تقوم على العناصر الآتية:

١- الاستفادة من إمكانات الفنون الأخرى، والوسائط الثقافية المختلفة فوق خشبة المسرح.. (فمثلا يمكن أن يتخذ الكاتب كتاب الطفل مدخلا لرواية المسرحية.. أو أن يتخيل متحفا تاريخيا.. أو يقدم المعلومة عن طريق الأرقام أو الحروف.. وغيرها من الوسائل الثقافية المبتكرة).

٢- اختيار المضمون أو القصة المحببة القابلة للمسرحة فوق خشبة المسرح.. أى أن يكون لها حبكة قصصية.. وهدف.. وقيمة سلوكية أو أخلاقية ذات تأثير فعال.. لأن القصة حينما تقدم من خلال الحوار أو الحركة.. فإنها تكون أكثر جاذبية ومتعة وتأثيرا.

٣- مراعاة مستوى اللغة والشعر فى المسرحية ولأى مرحلة من العمر يقدم هذا المستوى

٤- الإبهـار عـن طريق عناصر المسـرح الفنية من غـير مبالغة أو إسفاف.

٥- مراعاة الإيهام المسـرحى والخيال وجذب تعاطف الأطفال حتى تتحقق الاستفادة المنشودة.

٦- العمل على تنمية الطفل عقليا وجماليا وعاطفيا ولغويا.. بالتوازن المعقول بين هذه العناصر.

٧- الاهتمام بالتراث والواقع.. بحيث لا يغير أحدهما على الآخر.. بل يقدمان فى اندماج معقول.

٨- البسـاطة فى العرض مع مراعاة منح مسـاحة نفسـية للتخيل والاندماج.

٩- استخدام وسائل الجذب المتعددة فى العرض (العرائس.. تمثيل الكبار.. تمثيل الصغار.. الجمع بين الكبار والصغار) بما يتناسـب مع النص المسرحى وأهدافه.

١٠- الابتعـاد عن المواعظ والأسـلوب الخطابى الذى ينأى بالأطفال عن المتعة والتأمل.

## وأخيرا..

لقد شـئت أن أؤكد بعض الإرهاصات للمسـرح الشعرى للأطفال من خلال التجربـة العملية الذاتية.. وتوضيح أهمية هـذا الفن.. وأهمية تقديمه للطفل العربى.. بل يمكننا عن طريق المسرح أن نقدم كل شىء.. (وتجربة المناهج الدراسية تدل على نجاح تأثير هذا الفن).

وبقـى أن نطالـب أجهزة الإعـلام بالاهتمام بالمسـرح وتقديمه إلى الطفـل.. كمـا نطالب هيئة المسـرح كذلك أن تتعامل مع مسـرح الطفل على قدم المسـاواة مع مسـرح الكبار.. فليس الطفل كما مهملا أو كائنا موسميا يهتم به كلما جاء شـهر الطفولة.. أو مناسـبة الأعياد.. لكنه كائن يتطلب اهتماما مستمرا.

وبقدر ما يكون اهتمامنا بالطفل.. بقدر ما يكون إشراق المستقبل.

* * *

## إحياء قدرة الوالدين على الحكى والحوار مع الأطفال

(١)

أجمل الحكيم المصرى القديم (بتاح حوتب) دستوره فى التربية الأسرية حين قال:

(إذا نضجت وكونت دارا.. وأنجبت ولدا من نعمة الإله.. واستقام لك هذا الولد.. ووعى تعاليمك.. فالتمس له كل شىء حسن.. وتحر كل خير من أجله.. فإنه ولدك وفلذة كبدك.. ولا تصرف عنه نفسك).

وجاء فى تعاليم مصرية متأخرة ما يؤكد مسئولية الآباء فى تربية أبنائهم على هذا النحو: (إنه تمثال من حجر ذلك الابن الذى لم يعلمه أبوه).

وكان المصرى القديم يحرص على كثرة نسله وعلى حسن تعليم أولاده وتربيتهم ولم يكن الرجل وحده من يقوم بهذه المهمة.. فقد شاركت الأم زوجها ذلك مشاركة فعلية.

أدرك المصرى القديم ـ إذن ـ أهمية أن يعنى بتربية أبنائه وكثرت فى ذلك الأمثال والرسائل التى تحضُّ الوالدين على تثقيف أبنائهم وتعليمهم وتهذيبهم فى مناحى الحياة كافة.. وكانوا ينظرون إلى فترة الطفولة على أنها أهم فترات العمر التى تمر بالإنسان.. ومن ثم كان حرصهم على تنشئة أبنائهم تنشئة صالحة.

وكان الطفل فى سنواته الأولى يعيش مع ألعابه من دمى وتماسيح وسواها ثم ها هو يدخل إلى المدرسة فى مراحلها المختلفة.. وتتعاون الأسرة مع المدرسة فى تربية الطفل.

كانت تلك هى الحال فى مصر القديمة وربما فى غيرها من الحضارات القديمة.

فإذا انتقلنا إلى الحضارة العربية.. فنحن أمام صحراء جرداء قليلة الزرع نادرة الماء.. وقد شارك الطفل الكبار تلك الحياة بحلوها ومرها فكان الغلام يتمرن على أعمال آبائه ليسلك طريقهم فى كسب العيش ومنازلة الوحوش.. وكنت التربية فى المناطق الحضرية تهدف إلى تخريج الأحداث فى الصناعات والحرف المختلفة.. وكان الآباء يربون أبناءهم من خلال تجارب الحياة اليومية وبما يسمعه الأبناء منهم من النصائح والعظات والمعارف والأشعار وغيرها مما تحفظه الذاكرة لديهم وتصبح دستورا فى حياتهم.. ومن المعروف أن المجالس الأدبية والأسواق العربية كانت مظهرا من مظاهر المعرفة والتربية الثقافية للصغار والكبار على السواء.

ثم يجىء الإسلام ليضع لعلاقة الآباء بالأبناء ملامح واضحة ومسئولية مشتركة.

ولسنا الآن فى مجال معرفة أساليب التربية وعلمائها العرب والمسلمين فهذا ليس مجاله.. وإنما كان هدفنا من هذا التمهيد التركيز على أهمية دور الأسرة مع المدرسة فى تربية الصغير خلقيا وثقافيا وعلميا.

(٢)

من المؤكد أن الأسـرة تكتمل بوجود الأطفال.. ومن ثم فأهمية تربية الأطفـال ورعايتهـم من العوامـل التى تلعب دورا فى تنشـئة الأطفال باعتبارهم أعضاء فى الأسرة.

ومـن المعروف أن التربية لها مظاهر كثـيرة لكن ما يهمنا الآن هو البعد الثقافى فى تربية الطفل متمثلا فى تغذية العقل والوجدان.

وتقـع مسـئولية تثقيف الطفـل ـ خاصة فى سـنواته الأولى ـ على الوالديـن ويؤكـد علماء التربيـة أن الطفل فى سـنواته الأولى يميل إلى الحكـى.. فهو يظـل طول يومه يحكى ويتحدث مـع أمه وأبيه وأخته أو أخيـه عن أحـداث حدثت له.. أو عن خيـال أو لعبة أو علاقاته مع أصدقائه.. ولا يكف عن ذلك إلا عند موعد النوم..

وأمام هذه الحقيقة فإن مسـئولية الوالدين ـ ثقافيا تتمثل فى إشباع نهـم الطفل وتغذيته بالمـادة التى يمكن أن تضيـف إلى عقله ووجدانه مساحات أكبر للحكى.

وفى هذا السـياق يمكـن أن نبدأ مع الطفل فى سـنواته الأولى بتلك القصص البسـيطة القصيرة التى لا تحتاج إلى تركيز شـديد.. فليسـت القصص مناسـبة لكل الأعمار ولكنها تتوقف غالبـا على قدرة الصغير على الإصغاء والمتابعة.

إن الطفل ما بين الثالثة والخامسـة ـ مثلا ـ يفضل تلك القصص التى تحكـى عن الحيوانات أو الشـخصيات المحيطة بـه.. وما بين الثامنة

والعاشـرة.. يفضل الطفل القصص الخيالية التى تدور حول الساحرات والعمالقة والجنيات.. وما بين العاشـرة والرابعة عشـرة يفضل الطفل قصص المغامرات والرحلات والمكتشـفين والألغاز.. أما المرحلة الأخيرة من سـن الطفولة فيفضل الطفل فيها الحكايات التى تدور حول البطولة والقيادة والرومانسية.. والكفاح.

ودور الوالدين فى سنوات الطفل الأولى أكثر أهمية.. لأن الطفل يكون فى دور تعليم القراءة واكتساب المعرفة وفى حاجة إلى من يرشده ويأخذ بيـده فى طريـق التثقيف.. لهذا فإن الاسـتماع إلى الوالدين.. والحوار المتبـادل بينهما وبين الطفل.. واللعب الذى ينطوى على المعرفة.. كلها تمثل مسئولية مهمة فى نطاق الأسرة.

وعلـى الوالديـن حينما يقبل عليهمـا الطفل راغبا فـى الحكى أن يسـتمعا إليه مهما كان حديثه تافها وساذجا.. وعلى الوالدين إزاء ذلك أن يتحاورا معه حوارا مفيدا.

إن الطفـل فى سـنواته الأولى يرى كل شـىء بمنظـوره الخاص.. فالشجرة تتحرك وتمشى فى الشارع.. والحمار يتكلم.. والقطة تلعب.. والكلب يحرس البيت.

وهـذه طفلة صغـيرة طلبت مـن أبيها أن ينظر معها من شـرفة البيـت.. ثم بدأت تحكى له كيف أن الشـجرة الكبـيرة أمام البيت كانـت غاضبة علـى الأولاد لأنهم ضربوها بالكـرة.. وجرحوها فى جسدها فسال الدم منه.

ومـرة أخرى جـاءت تشـكو إلى أبيهـا زميلها فى المدرسـة لأنه يضربهـا.. وتمنت أن يموت زميلها ويأكلـه الذئب.. بدلا من أن يأكل ذات الرداء الأحمر.

ومرة ثالثة حكت له كيف ضرب جارها القطة ضربا موجعا فأخذت هـى تبكى وتصيـح بالجار: حرام عليك.. ثم قالـت لأبيها: طبعا هذا الجار سوف يذهب إلى النار.

مثـل هذه المواقف ـ الحكايات ـ التـى يحكيها الأطفال تفتح أبواب الحكـى لـدى الكبار لإشـباع رغبة الصغار وإنشـاء عدد مـن المواقف المشابهة فى أسلوب بسـيط وخيالى.. مفعم بالقيم.. ويساعد على تنمية الخيال والفكر معا..

ولأن الوالدين هم أقرب الناس إلى أطفالهم.. فإن الأطفال يسـتمعون إليهم فى حب وشـغف واسـتمتاع.. ومن ثم فروايـة القصة أو الحكى للطفـل يرتبـط بحب الأطفـال للوالدين.. ممـا يجعلهم أكثـر تركيزا وانتباها لمضمون هذا الحكى.

ولقد تعددت الآراء حول: ماذا نحكى للأطفال فى أعمارهم المختلفة ؟

ومـن المؤكد أن الأطفال الصغـار يميلون إلى القصص البسـيطة غير المعقـدة.. والقصيرة غير الطويلة.. والمرسـومة الملونة.. والمجسـمة.. وذات الصـوت.. باعتبار أن ذلك كله يمثل جانبا من اللعب الذى يثقف الصغير.. ويسليه ويمتعه.

ومـن المؤكد أيضـا أن الحكى بدون كتاب فى المراحـل المبكرة أفضل كثـيرا من الحكى مـن الكتاب.. ففى مثل هـذه القصص يحاول الكبير الـذى يحكى أن يلون من صوته ويمثل بيديه وملامح وجهه وجسـده.. فيصل تأثير ذلك إلى وجدان الطفل بشكل أفضل.

(٣)

وعلى الحاكى أو الرٰاوى أن يكون على استعداد لتلقى عدد من الأسئلة والمقاطعات من الطفل.. وعليه أن يجيب عليها بابتسامة ومرح وهدوء.

ونلاحظ أن الأطفال فى سنواتهم الأولى لا يملّون من سماع القصة أكثر مـن مرة وكثيرا ما نسـمع الطفل يطلب من أبيـه أو أمه.. أن تحكى له القصة (كذا) التى سمعها من قبل.. لأنه يحب الاستماع إلى هذه القصة.. وعلى الحاكى أن يحاول رواية القصة بشـئ من الإضافة أو التجديد فى الأسلوب بما يناسب عقلية الصغير.

ويسـوقنا ذلك إلى ضرورة الحوار مع الطفل.. الذى نحسـبه جانبا مكملا للحكى ويجعل الطفل مشاركا فى كل شىء فقد يدور الحوار حول القصة التى اسـتمع إليها الطفل.. وقد يكون فى صورة أسئلة من الصغير إلى الكبير.. وقد يكون حول موضوع معين.. والحاكى هنا عليه أن يتقبل الأسئلة.. ويدير الحوار دون ضيق أو ضجر.. ولا بأس أن يربط الأسئلة بمواقف أو حكايات سريعة تؤكد إجاباته للصغير.

لقد كشـفت بعض البحوث عن خصائص مميـزة للمراحل العمرية المختلفة.. بدءا من الميلاد.. فقد تبين أن الطفل فى عمر العامين يتساءل

عن الأشياء ومسمياتها ويحاول أيضا أن يقلد الأصوات.. ومن سن الثانية حتى الرابعة يتعلم من الخبرات المباشرة.. ويكرر هذه الخبرات فى صورة ألعاب.. كما يبدأ فى إنماء الإحساس بالاستقلال.. ومن الرابعة حتى السادسة يتقمص أدوارا مختلفة فى أثناء اللعب.

ومن ثم فإن دور الوالدين هنا يتركز فى هذه المعرفة برغبات الطفل.. وكيف يصوغان أسلوب تعاملهما مع الأبناء على نحو يمكنهما من معايشة كل مرحلة عمرية بكل ما تقتضى من الاحتياجات النفسية والتثقيفية.. ولاشك أن دور الوالدين كذلك يتكامل حينما يضاف إليه إمكان تنشئة الطفل اجتماعيا وكذا كيفية تنمية قدراته الإبداعية.

على الوالدين إذن أن يتحليا بالمرونة والمحبة.. وبأدنى درجة من التسلط وأقل درجة من التضييق على الطفل.. أى أنهما يتعاملان مع الطفل على أنه كائن صغير السن يتطلب احترام رغباته.. والثقة فى امكاناته.

ويمكن تلخيص هذا الدور فى هذه الخصائص:

١- إعطاء الوالدين لأبنائهم قدرا كبيرا من وقتهما وجهدهما لرعاية مواهب الصغير منذ الطفولة المبكرة.

٢- التعامل مع الصغير باحترام ومحبة وتقدير لكل رغباته.

٣- محاولة تعديل سلوكه عن طريق الحكى وغرس مزيد من القيم فى وجدانه.

٤- اتباع أسلوب التربية الذى يأخذ صورة التوجيه وليس الضغط أو السيطرة.

٥- إعطـاء الطفل قدرا من الاسـتقلال والتعبير عن ذاته بممارسـة الهوايات واللعب.

٦- الاهتمام بأى سؤال من الطفل مهما كان تافها أو بسيطا..

ونحسب أن الأسرة تمثل سياقا ملائما لتحقيق تلك الخصائص وذلك عن طريق:

١- الحكى من خلال الأحداث اليومية.

٢- الحكـى عن طريـق اللعب باعتبار اللعب يحقـق المتعة والتعلم معا.

٣- أن يكون الوالدان قدوة إبداعية للأبناء.. فالصغار ينظرون دائما إلى الوالدين على أنهما يعرفان كل شـىء.. ويستطيعان تحقيق أى شىء مهما كانت صعوبته.

٤- تقبـل الأفـكار القريبة من الطفل دون ضجـر ومحاولة الإجابة عليها أو سردها فى قصص منطقية.. تلائم سنهم.

٥- محاولة الارتقـاء بالذوق الجمالى عند الطفـل من خلال تعميق الإحساس بالصور والطبيعة.

(٤)

بقى أن نسأل: ماذا نحكى لأطفالنا ؟

سـبق أن ذكرنا أن القصص تتنوع فى المرحلة الابتدائية بين القصص الخياليـة والقصص الواقعيـة.. وقد تطول القصـة أو تقصر معا لمراحل الطفولة المختلفة.

- ففى المراحل الأولى فى نمو الطفل.. يحكى الوالدان القصة المتعلقة بالحيوانات وغيرها من الكائنات المحيطة بعالم الطفل مثل الأشجار والأنهار والزهور والنباتات.

ويؤكد علماء التربية أن علاقة الطفل بالحيوان هى علاقة وجدانية.. وهى أيسر على الفهم من علاقة الإنسان بالإنسان.. ربما لأن الحيوان الأليف - فى معظمه - أصغر حجما من الإنسان.. والطفل بطبيعته ذو حجم صغير.. ولأن الحيوان قريب من وجدان الطفل يلعب معه ويداعبه.. وقد يظهر له فى أحلامه وفى مخاوفه كذلك.

والحيوان أيضا على المستوى الشعورى صديق للطفل.. فهو يشترك مع الطفل الصغير فى عدم معرفة اللغة والكلام.. وكذلك فى إمكانية اللعب والمرح.. وقصص الحيوان فيها مضامين الخير والشر والأخلاق والقيم الإيجابية والسلبية وتقويم السلوك والذكاء والغباء.. بطريقة جذابة.. ومن أشهر هذه القصص: «كليلة ودمنة - خرافات إيسوب - حكم لقمان».

ثم حينما ندخل إلى مرحلة الفهم والخيال.. يمكن للوالدين أن يحكيا قصص الخوارق والسحرة والجنيات والأساطير القديمة.

ومن أشهر هذه الحكايات: حكايات مصر القديمة - ألف ليلة وليلة وشخصياتها الشهيرة «سندباد، علاء الدين، على بابا، أبو قير وأبو صير، وغيرها».

- وفى هذه المرحلة وما بعدها يمكن أن نحكى القصص التاريخية التى تعمق إحساس الطفل بالحياة.. وتمنحه فكرة الانتماء والقدوة والكرامة والبطولات.

والتاريخ الإنسانى حافل بهذه الحكايات والشخصيات والأحداث التى تشبع فهم الطفل.. كما أن التاريخ العربى الإسلامى غنى كذلك بهذه القصص.. ويمكن التركيز على شخصية البطل: صلاح الدين ـ الظاهر بيبرس ـ خالد بن الوليد ـ عمرو بن العاص ـ ابن خلدون ـ ابن سينا.. وكذلك قصص الأنبياء والصحابة.. وقصص الحيوان فى القرآن.

ومن القصص الجذابة كذلك: القصص الفكاهية أو الساخرة وهى تهدف فى ظاهرها إلى الضحك والمتعة والترويح عن النفس.. لكنها تحمل الحكمة والعبرة.. مثل: جحا ـ أشعب ـ البخلاء ـ الأذكياء ـ الظرفاء ـ الحمقى ـ المغفلين.

ومن القصص المهمة أيضا: القصص العالمية المترجمة مثل: سندريلا ـ أليس فى بلاد العجائب ـ ماركو بولو ـ ميكى وبطوط ـ حكايات جريم.. أندرسون.

وكذلك القصص العلمية وقصص الاكتشافات.. وعالم الفضاء.. ومغامرات البحار والخيال العلمى بأسلوب رمزى جذاب.. يثير خيال الطفل ويشبع وجدانه.

(٥)

أما عملية الحكى فتتطلب عناصر مهمة.. إذ إن هناك فرقا بين قراءة القصة بلغتها المكتوبة.. وسردها أو حكايتها.

ولابد فى البداية أن يهيئ الحاكى المناخ المناسب للحكى وهو مناخ شعورى يتحقق بإشعار الطفل بالصداقة والأمان.

وعلى الوالدين كذلك أن يحرصا على تيسير لغة الحكى ومناسبتها للمستوى العقلى للطفل.. وتنوع الصوت والأداء وحركة اليدين والجسم فى أثناء الحكى.

وعليهما أن يشركا الطفل فى الحكى.. كأن يتوقف الحاكى فجأة ويسأل ويوقظ الطفل.. ويسيطر على عقله بالابتسامة والتشجيع.

والحكى قدرة ومهارة لكنه ليس صعبا على الوالدين..

ومن عناصر الحكى المهمة استخدام الألفاظ السهلة فمثلا:

ـ جملة: مات الرجل الشرير.

أفضل من: توفى أو قضى نحبه.. أو لاقى منيته.

ـ وكلمة: غالى..

أفضل من كلمة: ثمين.

ـ وجملة: كان قائدا محبوبا

أفضل من جملة: احتل هذا القائد قلوب الجنود.

ـ وكلمة: عاد..

أفضل من: آب.

ـ وكلمة: قلب..

أفضل من: فؤاد.

ونسوق هنا نموذجا عمليا..

حكاية بعنوان (غرور) كتبت هكذا:

(لاحظ ذئب وهو يتجول فى البرية مساء.. أن له خيالا عظيما

ينعكس أمامه فى ضوء القمر على الأرض.. فقال الذئب: تصوروا أن مخلوقا كبيرا مثلى يخيف الأسد.. طولى ولا شك يبلغ ثلاثين مترا.. ولذلك سأجعل نفسى ملكا.. وأحكم كل الحيوانات دون تمييز.. ولكن.. مع اعتداد الذئب بنفسه شاهده الأسد فأمسك به وقضى عليه.. وفى أثناء ذلك قال الذئب لنفسه: غرورى قادنى إلى خرابى).

هذا هو النص الأصلى للحكاية.. لكن يمكننا أن نعيد كتابته بأسلوب أسهل وأجمل هكذا:

العنوان: (غرور الذئب)

(كان القمر كبيرا فى الليل.. يملأ الأرض بضوئه الجميل.. وكان الذئب يمشى فوق ربوة عالية.. فرأى ظله ينعكس أمامه كبيرا.. قال الذئب لنفسه: أنا الآن أكبر من كل الحيوانات.. أنا لا أخاف الأسد.. ولا أى حيوان آخر.. سأعلن نفسى ملكا على الحيوانات.. أخذ الذئب يضحك ويرقص ويغنى.. فسمعه الأسد الذى كان قادما من بعيد.. فأقبل عليه.. وضربه.. وألقاه على الأرض.. قال الذئب لنفسه: أنا المخطئ وغرورى هو سبب هزيمتى).

أما كيف نحكيها للأطفال.. فأظنه أمرا صار سهلا وبسيطا.

الحكاية إذن بواسطة الوالدين تمثل جسرا تربويا مهما فى تكوين شخصية الطفل.

وعلى الوالدين اختيار الوقت المناسب والقصة الملائمة لعقلية الطفل على أن يتم الحكى بأسلوب مشوق جذاب.. وأن يجرى حوار بين الحاكى والطفل فى نهاية القصة حول مفهومها وحكمتها.

(٦)

**وبعد**

فإن مسئولية الوالدين فى عصر ممعن فى غرس قطيعة لهذه الصلة الحميمة بينهما وبين أطفالهما.. مسئولية مهمة وخطيرة.. والعودة إلى هذا الدور من الأمور التى تعيد للأسرة تلك الروابط التى بدأت تتفكك تحت شعار الحضارة والتقدم.. وليتنا نفهم شعار (اقرأ لطفلك) على أنه دعوة ملحّة إلى الترابط الأسرى.. ورعاية أطفالنا تربويا وثقافيا.. لكى ينشئوا رجالا صالحين فى المستقبل القريب.

* * *

# أضواء على رواد أدب الأطفال

## محمد عثمان جلال

مع بداية النهضة المصرية فى أوائل القرن التاسع عشر.. تسابق المصريون لمعرفة ثقافات العالم.. وآدابه المختلفة.. فتعلموا اللغات الأجنبية ليقرأوا هذه الثقافات والآداب بلغاتها الأصلية.. وينقلوا عنها إلى العربية ما يضيف إلى المعرفة والفكر.

ومحمد عثمان جلال كان أحد الذين نقلوا لنا جوانب عدة من الآداب الأجنبية فى مجالات مختلفة.

وهو محمد بن عثمان بن يوسف الحسينى الجلالى لقبا ولد عام ١٨٢٦م بقرية (ونا القس) بمحافظة بنى سويف.. قريبة من الجبل الغربى.. وكان والده من كتبة بيت القاضى.. توفى حينما كان ابنه محمد فى السابعة من عمره، فكفله جده لأمه وألحق بمدرسة قصر العينى ومعه شقيقه الصغير السيد.. وكان لحفظه القرآن قبل الالتحاق بالمدرسة أثر فى تفوقه الدراسى.

وحينما عاد رفاعة الطهطاوى من بعثة فرنسا زار المدرسة واختاره هو وتلميذا آخر اسمه حسين عثمان ليدرسا فى مدرسة الألسن الفرنسية والعربية فى أعلى مستوى.

وفى عام ١٨٤٥م ندب لتعليم الفرنسية لرجل فى ديوان الخديوى اسمه زايد أفندى.. وترقى إلى قلم الترجمة.. وترجم أول كتاب بعنوان (عطار الملوك) فى العطريات من مياه وزيوت ودهون. وبدأ يكتب الشعر فى هذه السن المبكرة (١٧ عاما) وكان أول ما كتب قصيدة مدح بها

رئيس قسم الترجمة واسمه (باقى) باشا.. يقول فيها:

أمـا الـذى سلب الفؤاد فسـاقى ... وروى الظما بين الريـاض فساقى
أسـر الفـؤاد بناظريـه مهفهفٌ ... تجـرى الجفون عليـه بالإطلاقِ
ما مـاس يعبث بالغصـون قوامه ... إلا عـدت تشـكـوه بالأوراقِ
ولقد أراهـا أحضـرت بيمينهـا ... عرضـا.. تقدمـه لدولـة (باقى)

وفـى هذه الفترة من حياته كان يترجم فـى الأوقات الخالية كتاب (لافونتين) الفرنسـى (الخرافات) وهو من أعظم كتب الأدب الفرنسى المنظومة على ألسـنة الحيوانات على نسـق فاكهـة الخلفاء.. والصادح والباغم وكليلة ودمنة.

وللشاعر مع هذا الكتاب قصة طريفة..

فما أن انتهى من ترجمته (مائتا قصة شـعرية) حتى لجأ إلى نساخ مشـهور يدعى محجوب الشـهد فنسـخ الكتاب بخط جميل.. وتعاقد الشـاعر مع رجل فرنسى يسمى (الخواجة يوسـف ببر) يدير مطبعة مـن الحجر لطبع الكتاب.. وأنفق علـى ذلك كل ما يملك.. فلما تم طبع الكتاب (١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م) عرضه على الخديوى عباس.. وكان واسطته مصطفى باشـا فاضل.. فرمى الخديوى الكتاب فـى وجه حامله.. فعاد بخفى حنين.. فباع الشاعر حماره وبقية ما يملك وركبه الغم وقال:

راجـى المحـال عبيـطُ ... وآخـر الـزمـر طيـطُ
والنـاس فاثنـان: بخـتٌ ... مـروّج وقـليطُ
والعلـم مـن غيـر حـظ ... لا شـك جهـل بسيـط

لكـن هذا الحـادث لم يثنه عن مواصلة حياتـه ففى عهد الخديوى إسماعيل خطى محمد عثمان جلال خطوات واسـعة حتى أصبح رئيسـا للمترجمـين بديوان البحرية.. ثم نقل رئيسـا لقلم الترجمة فى وزارة الداخلية.. ثم عين قاضيا بالمحاكم المختلطة حتى سن التقاعد.

وقـد منحته الحكومة المصرية رتبة التمايـز الرفيعة.. كما منحته الحكومة الفرنسية (١٨٨٦م) نيشان الأكاديمية من رتبة ضابط.. ويرحل محمد عثمان جلال عن دنيانا فى عام ١٨٩٨م عن اثنتين وسـبعين سنة تقريبا.

ومؤلفـات محمد عثمان جلال تتراوح بين الأعمال المؤلفة والمترجمة وهى:

١- عطار الملوك: مترجم عن الفرنسية نشر (١٨٤٥م).

٢- العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ (١٨٥٨م).

٣- أربع مسـرحيات مترجمة عن موليير وهى: الشـيخ مخلوف ـ النساء العالمات ـ مدرسة الأزواج ـ مدرسة النساء (١٨٨٩م).

٤- أربع مسـرحيات مترجمة عن راسـين وهى: أستير ـ أفغانية ـ الإسكندر ـ أطالى (١٨٩٣م).

٥- مسرحية (سيد) مترجمة عن الفرنسى كورنى.

٦- رواية (الأمانى والمنة) للكاتب الفرنسـي: برنارد دى سان بيار وقد ترجمها المنفلوطى بعد ذلك باسم (الفضيلة ـ أو بول وفرجينى).

٧- مسرحية (المخدمين) طبعت بعد وفاته (١٩٠٤م)

٨- أرجـوزة: فى تاريخ مصر.. يحكى فيهـا تاريخ مصر منذ تولى محمد على إلى عهد عباس حلمى.

٩- السـياحة الخديوية فـى الأقاليم البحرية: يصـف فيه رحلة الخديوى توفيق إلى الوجه البحرى (١٨٦١م).

١٠- ديوان الشعر.

١١- ديوان زجل (فى الملح والفكاهات).

ومن ثم تنوع تراث محمد عثمان جلال بين التأليف والترجمة..

وكان الشـاعر حريصا على تقديم أعماله بالشعر.. ومن ذلك ما كتبه فى مسرحية (الشيخ مخلوف) مشيرا إلى مغزاها:

كـم غبـى مـذبـذب يتـوارى وإذا بـان بـان وهـو مرائـى
لا إلـى هـؤلاء إن نسبـوه يجـدوه ولا إلـى هـؤلاء

وفى مغزى رواية (مدرسة الأزواج) يقول:

إن تكـن المـرأة ذات خفـه ولم تكـن أصيلـة فى العفه
فحبسـها وحجـزها لا ينفـعُ لأنهـا من كـل بـاب تطلعُ

أما أشـعاره فهـى متنوعة كذلـك ومنها ما كتبه بعـد وفاة إحدى كريماته مفضلا الوحدة والعزلة:

يكـدُر العيـشُ إذ أكـون مـع النا سِ ويصفو إن كنتُ فى البيت وحدى
سـرنى الانفـرادُ حتـى إذا مـا ذكـر المـوت ... حنَّ قلبى للحـدى

وكتب ناقدا هؤلاء الذين يدعون إلى الأدب التقليدى ولا يسـتلهمون مشـاعرهم الخاصة وأسـاليبهم المبتكرة فى إشـارة إلى مـن عابوا عليه

توظيف الشعر لحكايات الحيوان:

يقولـون ما هـذا الكتـابُ وما به ... أكاذيبُ أقـوالِ البهائـم فـى قبْحِ
وقـد زعموا أن البلاغـة لـم تكـن ... بأحسن ممـا قيل فى القـد والرمحِ
وتشبيه لـون الخد بالورد واللظى ... وتمثيل نـور الوجه إن لاح بالصبحِ

وفى لفته ذكية أخرى يذكر بعض السـمات الخاصة بصناعة الشعر فيقول:

يـا راوى الشعر قم رتلـه ترتيلا ... واجعله سهـلا فـلا يحتاج تأويلا
واختر لنفسـك ألفاظـا إذا نُثـرت ... على الكتاب تخال الطِرسَ مصقولا
وغُصْ بحورَ المعانـى وانتخب دررا ... تُقنى وتُهـدِى لتـاج الملك إكـليلا
وأوجز القولَ عنـد المـدح محتكما ... فمحكم المدح لا يحتـاج تأويـلا

ويقول فى رثاء رفاعة الطهطاوى:

يغـادرنا من نرجّـى انتِفاعَـه ... ويمنـع من لا تحـب امتناعَـه
ويقطعنـا مـن نـرى قربَه ... ويوصـلنا من نـودُّ انقطاعَـه
وما الدهـرُ إلا العـدو المبين ... إذا شـام خرقا.. أحـب اتسّاعه
فيا ليتـه مـال للعـدم يوما ... وأبقـى إلـى طالبيـه رفاعـه
همـام تمكن مـن كـل فن ... ومكّن فـى كـل علـم يراعَه

وهـا هو يدعـم الخط الذى بدأه أسـتاذه الطهطـاوى.. ويترجم عن الأدب الفرنسى أعمالا كثيرة.. فى مجال المسرح.. ثم يعجب بخرافات لافونتـين فيترجمها ديوانا كاملا بعنوان (العيـون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ).. وهذا الديوان طبع ثلاث طبعات حتى اليوم.

الطبعة الأولى لدى مطبعة الحجر التى يملكها الخواجة يوسف ببر فى عام ١٨٥٨م

والطبعة الثانية فى عام ١٩٠٨م بعد موت المؤلف أما الطبعة الثالثة فقد حققها وأصدرها الشاعر عامر بحيرى فى الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٧٨م.

ويكاد يكون محمد عثمان جلال أول من ترجم لافونتين إلى العربية بأسلوب سهل ميسور يصلح للصغار.. فقد جاء بعده عبد الله فريج (١٨٩٤م) وأصدر نظم الجُمان فى أمثال لقمان.. ثم أحمد شوقى (١٨٩٠م -١٨٩٣م) فى أثناء وجوده بفرنسا.. حيث ترجم لافونتين أيضا..

ودائما ما كان ينهى الشاعر قصيدته بحكمة أو مثل شعبى يلخص مضمون القصة.. ويقف بالقارئ على قيمة معينة.. مثل:

فاجتنبوا السلطان عند الشركة ... فليس فيها للشريك بركة

أو يقول:

تلك عيون جفنها حرابُ ... وإنما يملؤها الترابُ

أو يقول:

وقال: بنى احذر غبيا لقيته ... ولا تصنع المعروف فى غير أهله

أو يقول:

سعيتِ يا أختاه فى أعظم كدْ ... وهكذا فى السعى: من جد وجدْ

أو يقول:

وصنعة فى اليد لا فى الصدر ... لهى أمانٌ من عذاب الفقرِ

ونسوق هناك مثالا من ديوان (العيون اليواقظ) وهو بعنوان (صاحب الدجاجة) يقول فيها:

كان البخيل عنده دجاجة ... تكفيه طول الدهر شر الحاجة
في كل يوم تعطيه العجب ... وهي تبيض بيضةً من الذهبْ
فظن يوما أن فيها كنزا ... وأنه يزداد منه عزّا
فقبض الدجاجة المسكينُ ... وكان في يمينه سكينُ
وشقها نصفين من غفلته ... إذ هي كالدجاج في حضرته
ولم يجد كنزا ولا لقيَّه ... بل رمَّة في حجره مرميَّه
فقال: لا شك بأن الطمعا ... ضيع للإنسان ما قد جمعا

ولقد كتب بعض النقاد عن محمد عثمان جلال.. فبعضهم اتهمه بضعف عربيته كطه حسين في كتابه حافظ وشوقي في معرض حديثه عن ترجمات الشاعر للمسرحيات الأربع لموليير.

وبعضهم ومنهم عمر الدسوقي وقف منه موقفا وسطا حين قال في كتابه: في الأدب الحديث: (كان أديبا مطبوعا.. ثائرا على المدرسة التقليدية التي تحاكي الأدب القديم في محسناته وفخامته وموضوعاته.. ولولا ما شاب أدبه من إسفاف في اللفظ وجنوح إلى العامية إفراطا منه في مصريته لكان من أفذاذ الأدباء المصريين أصحاب المبادئ في الأدب).

ويقول د. أنور عبد الملك في كتابه (نهضة مصر): (ليس معنى ذلك أن الشاعر ضد الفصحى أو أن محصوله اللغوي منها بضعيف.. بدليل غيرته الشديدة على العربية في أخريات حياته حيث أسهم مع

مجموعة من العلماء والأدباء فى إنشاء معهد اللغة العربية الذى دعا إلى قيامه عبد الله النديم عام ١٨٩٢م)

## وأخيرا..

لقد بـــدأ محمد عثمان جلال طريقا جديدا فـــى الكتابة للأطفال عن طريق الشـــعر.. وجاءت بعده كوكبة كبيرة من الشعراء مازالت تتواصل بعطائها حتى اليوم.

* * *

## محمد الهراوى

شعر الأطفال قديم قدم الإنسانية.. تشهد بذلك البرديات المصريات والألواح السومرية والبابلية.. والمدارس الجماعية التى وضعت الشعر فى مناهج التعليم.

وتراثنا العربى حافل بنماذج من (ترقيص الأطفال) و(وصايا الآباء للأبناء) و(أغانى اللعب) مما يعد عاملا مهما من عوامل تربية الطفل الثقافية.

ولا نكاد نذكر شعراء الأطفال المعاصرين حتى نذكر الشاعر محمد الهراوى الذى يمثل أحد أعلام هذا الفن.

فما بين عامى ١٨٨٥م و١٩٣٩م عاش الهراوى حياته.. وهو محمد حسين محمد الهراوى المولود بقرية هرية رزنة بالشرقية وتعلم بالقاهرة والإسكندرية وأنشأ (مجلة الرسول) وهو طالب.. وهو من أسرة علم وأدب كبيرة.. فقد ورث ملكة الشعر عن جده كبير علماء مصر فى عهد محمد على باشا.. ثم تعهد هذه الملكة بالرعاية والتنمية خال الشاعر الشيخ محمد شريف سليم الذى كان مفتشا للغة العربية بوزارة المعارف.. وناظر دار العلوم.

ويتلقى الهراوى تعليمه العام.. ويتعلم الفرنسية والإنجليزية إلى جانب علوم العربية.. ثم يلتحق بعمل فى دار الكتب المصرية فى قسم الحسابات والمستخدمين.

ويتـزوج الهـراوى زينب كريمـة إبراهيم بك بيومـى المدير العام بوزارة المعـارف وكانت ذات ثقافة فرنسـية.. ويرزق منها بخمسـة أبناء: فاطمة ويحيى وسارة وإسماعيل وعزة.

وقد عنى الهراوى بتربية أبنائه وتثقيفهم جميعا.. وذكر أسماءهم فى أشعاره بوصفهم ممثلين للأطفال المصريين.

وكان يكتب الشعر ـ فى البداية للكبار ـ لكن شعره هذا لم يجمع فى ديوان لانصرافه بكامل طاقته الفنية للكتابة للصغار.

وفـى حى الحلمية القديمة بالقاهرة كان أحـد أعضاء ندوة الأدباء والشـعراء فى مقهى الحلمية العالية والتـى كانت تضم صفوة المفكرين والأدباء فى عصره.

وفـى عام ١٩٣٣م كرمه أدباء لبنان واحدا من الشـعراء الكبار وفى هذا الحفل دعا إلى (إقامة سفارة أدبية فى كل قطر من الأقطار يلجأ إليها الأديب فترشـده إلى إخوانه ورفاقه وزملائـه).. وكان هذا ردا على ما أبداه شعراء لبنان من أنهم مجهولون فى مصر مع أنهم يعرفون الكثير عن الشعراء المصريين.

وللهراوى أراء كثيرة فى أدباء عصره منهم: طه حسـين ـ والمازنى وعبد العزيز البشـرى ـ وزكى مبارك ـ وعلى الجارم ـ وحسـين شـفيق المصرى ـ ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم.

وقد اتجه الهراوى إلى شعر الأطفال معلنا ذلك فى قوله:

(الحـق إن أطفال مصر محرمـون من كل ما يتمتعـون به من كتب القـراءة والمطالعة والدرس والتعليم.. وقل مـن المؤلفين من يعنى عناية

خاصة بكتب الأطفال.. وحتى رجال (البيداجوجيا) ـ أى رجال التعليم ـ فى كتبهم المدرسية.. هؤلاء أيضا قلما يضعون مؤلفاتهم الصغيرة فى مستوى مدارك الأطفال.. كأنهم فهموا أن ليس لهؤلاء الأطفال عقول غير عقول الذين صعدوا فى درجات العلم والتعليم مدى بعيدا).

وبهذا بدأ الرجل يفكر فى أمر الأجيال الجديدة.

وحينما نمعن النظر فيما كانت عليه ساحة أدب الأطفال فى أوائل القرن العشرين فإننا نجد أعمالا قليلة على أيدى محمد عثمان جلال فى ديوانه (العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ) - وأحمد شوقى فى الجزء الرابع من ديوانه حيث كتب بابين: باب الحكايات وديوان الأطفال.. وعبد الله فريج فى ديوانه (نظم الجُمان فى أمثال لقمان).. وهذه الأعمال قد اعتمدت على خرافات لافونتين وإيسوب.. ولقمان.

من هنا أدرك الهراوى أن الطفل المصرى فى حاجة إلى الشعر فى جميع مراحل حياته.. فأخذ يجرب ذلك على أطفاله الصغار واستطاع أن ينوع موضوعاته ويصدر ثمانية وعشرين عملا تتناسب مع المراحل العمرية للطفل ومع البنين تارة والبنات تارة أخرى.

وهذه الأعمال هى:

١- سمير الأطفال - (١٩٢٢م) ويشمل خمسا وثلاثين أنشودة.

٢- سمير الأطفال للبنين جـ١ - (١٩٢٣م) ويشمل إحدى وعشرين أنشودة.

٣- سمير الأطفال للبنات جـ١- (١٩٢٣م) ويشمل تسع عشرة أنشودة.

٤- سمير الأطفال للبنين جـ٢- (١٩٢٣م) ويشمل إحدى وعشرين أنشودة.

٥- سمير الأطفال للبنات جـ٢- (١٩٢٣م) ويشمل عشرين أنشودة.
٦- سمير الأطفال للبنين جـ٣- (١٩٢٣م) ويشمل إحدى وعشرين أنشودة.
٧- سمير الأطفال للبنات جـ٣ -(١٩٢٤م) ويشمل عشرين أنشودة.
٨- السمير الصغير - (١٩٢٦م) ويشمل ست عشرة أنشودة.
٩- الذئب والغنم - (١٩٢٦م) رواية.
١٠- الطفل الجديد - (١٩٢٦م) مجموعة أناشيد تهتم بسلوك الطفل اليومية.
١١- ألف ياء - (١٩٣٧م) أمثلة للحروف.
١٢- أنباء الرسل - (١٩٢٨م) محفوظات بالشعر عن الرسل والأنبياء.
١٣- بائع الفطير - (١٩٢٨م) ومعها النوتة الموسيقية.
١٤- جحا والأطفال - (١٩٢٩م) ومعها النوتة الموسيقية.
١٥- شمس الضحى - (١٩٢٨م) ومعها النوتة الموسيقية.
١٦- ليلة القمر - (١٩٢٩م) ومعها النوتة الموسيقية.
١٧- حلقات وحلقات - (١٩٢٧م) ومعها النوتة الموسيقية.
١٨- الطيور والبكور - (١٩٢٧م) ومعها النوتة الموسيقية.
١٩- تن تن - (١٩٢٧م) ومعها النوتة الموسيقية.
٢٠- بلابل الشجر - (١٩٢٧م) ومعها النوتة الموسيقية.
٢١- تحية الجنود - (١٩٢٩م) ومعها النوتة الموسيقية.
٢٢- القطار - (١٩٢٧م) ومعها النوتة الموسيقية.
٢٣- عواطف البنين - (١٩٢٩م) رواية نثرية.
٢٤- حلم الطفل ليلة العيد - (١٩٢٩م) رواية نثرية.

٢٥- نشيد مصر القومى - (١٩٢٠م).
٢٦- الحق والباطل - (١٩٢٩م) رواية نثرية.
٢٧- المواساة - (١٩٣٢م) رواية شعرية.
٢٨- العقل والقوة - (١٩٣٢م) رواية شعرية.

وقد عنى الهراوى باللغة الفصحى المبسطة التى تناسب كل مرحلة عمرية وتنوعت أعماله بين المقطوعة الشعرية ذات الإيقاعات الموسيقية البسيطة.. والقصيدة التى تتناول حكاية أو موقفا.. أو سلوكا أو مخترعا جديدا أو وصفا أو مهنة أو نشيدا وطنيا أو مناسبة اجتماعية أو لعبة.. وغيرها من المضامين التى استمدها من عالم الطفل فى مراحل عمره المختلفة.

وحرص الهراوى على اختيار مجزوءات البحور الشعرية لكى يسهل التغنى بها وحفظها.. وتدرج مع مراحل الطفل - صعودا - حتى اقترب من بحور الشعر الكاملة خاصة فى (سمير الطفل جـ٣).

كما التزم المضامين التربوية والخلقية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وكان يدرك تماما أنه شاعر وليس (واعظا دينيا)

وقد اختلفت الآراء حول تراث الهراوى الشعرى.. حيث واجهه بعض نقاد عصره ساخرين من المعانى الذى زجها فى بعض أشعاره.. ومنهم زكى مبارك فى أنشودته:

هرى مصرى عالى القدْرِ
وله وجه مثل النمرِ
وله عين مثل النسر

حيث قال زكى مبارك:

– هى منظومة تافهة مهما قيل إنها نظمت للطفل.

لكن هناك آراء أخرى إيجابية ترفع من قدر الهراوى ولا تتصيد له مثل هذه الهنات القليلة فى شعره ومن ذلك أن لجنة ترقية الأغانى القومية قد أعلنت فى عام ١٩٢٠م عن مسابقة لاختيار النشيد الوطنى المصرى وتقدم إلى المسابقة ستة وخمسون نشيدا تم اختيار خمسة فقط وكان النشيد الأول للشاعر أحمد شوقى الذى يقول فيه:

بنى مصر مكانكمُ تهيا  فهيا مهدوا للملك هيا

وكان النشيد الثانى للشاعر محمد الهراوى الذى يقول فيه:

دعت مصر فلبينا كراما  ومصر لنا فلا ندع الزاما
ومصر تحت رايتها قياما  أمامكم العلا فامضوا أماما

وكان الشاعر البدوى محمد عبد المطلب هو الذى كتب تقرير اختيار النشيدين

ومن الأناشيد الجميلة لمحمد الهراوى:

يا ابن مصر يا عريق النسبِ  قد دعا داعى العلا فاستجبِ
واطوِ فى الجد بساط اللعبِ  واطلب العزة تحت العلم
قد نزعنا للمعالى منزعا  وتسنمنا المكان الأرفعاَ
قل لشمس الأفق أخلى موضعا  لبنى النيل بناة الهرم

أو يقول فى أنشودة (حيلة):

رمـــى غـــلام بـكـــرة فـاقـتـربـت مـــن شجـــرة
وكـــان مـربـوطـــا بهـــا كلـــب يخـــاف ضـــرره
فـــدار حـــول جـذعـهـــا والكـلـب يقـفـــو أثـــره
فقصـــر الحـبـــل بـــه وعـــاد يـأخـــذ الكـــرة

وهى قصة قصيرة مكثفة.

ومن الأناشيد المهنية قوله:

أنـــا فـــى الصبـــح تلميـــذ وبعـــد الظهـــر نجـــار
ولـــى قلـــم وقرطـــاس وإزميـــل ومنشـــار
وعلمـــى إن يكـــن شرفـــا فمـــا فـــى صنعتـــى عـــار
فـللعلمـــاء مـرتبـــة وللـصـــناع مقـــدار

ويقول فى حروف الهجاء:

أبـــى امتحنـــى يـا أبـــى فـــى أحـــرف الهجـــاءِ
فـإنـنـــى أعـرفـهـــا مـــن ألـــف ليـــاءِ
وأنـــت فـــى أولـهـــا مـــن ألـــف وبـــاءِ

لقد كانت أعمال الهراوى ضمن مناهج التربية والتعليم لزمن طويل بما تتميز به من البساطة والقدرة على تنمية خيال الطفل.

# كامل كيلانى

لا يذكر فن الكتابة للطفل حتى يلمع اسم كامل كيلانى رائدا للكتابة القصصية فى هذا المجال.. فقد استطاع بوعى ومقدرة أن يؤسس لهذا الفن فى الوطن العربى.

وقد عاش كامل كيلانى حياة حافلة من العطاء تربو على الستين سنة بقليل.. فقد ولد فى حى القلعة بالقاهرة فى ٢٠ أكتوبر عام ١٨٩٧م فى بيت يطل على جبل المقطم.. وتوفى فى أكتوبر أيضا عام ١٩٥٩م(٥).

أما أبوه فهو الشيخ كيلانى إبراهيم كيلانى أشهر المهندسين فى عصره وكان من هواة القراءة ويتصل نسبه بالشيخ عبد القادر الكيلانى (الجيلانى) أما أمه فكانت تقول الزجل.

حفظ كامل كيلانى القرآن فى مكتب الشيخ عبد الباقى بحى القلعة.. ثم اتجه إلى مدرسة أم عباس الابتدائية عام ١٩٠٧م وبدأ فى قراءة الشعر العربى القديم وحفظ منه الكثير. ثم انتقل إلى مدرسة القاهرة الثانوية وحصل منها على شهادة البكالوريا. ثم عكف على دراسة الأدب الإنجليزى.. وتعلم الفرنسية وانتسب إلى الجامعة المصرية (١٩١٧م - ١٩٢٠م) كما حضر دروسا فى الأزهر الشريف حيث أجاد النحو والصرف والمنطق.

وكان من زملائه فى الدراسة زكى مبارك وعبد الوهاب عزام.. وإلى

---

(٥) (١٣١٥هـ / ١٨٩٧م) - (١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م).

جانب دراسته نهل من أربعة مصادر شفوية تمثلت فى خاله الكفيف الذى قص عليه كثيرا من قصص العرب.. وحوذى (عربجى) الأسرة الذى كان ملما بحكايات السحر والخرافات.. حافظا للقرآن والأحاديث النبوية.. وأسرة يونانية أقامت معهم فاستمع إلى أساطير اليونان القديمة.. وشاعر شعبى (شاعر ربابة) كان ينشر أقاصيص البطولة والسير الشعبية كل ليلة بميدان القلعة.

وحينما تخرج فى الجامعة اشتغل بالتدريس ثم انتقل إلى وزارة الأوقاف (١٩٢٢م - ١٩٥٤م) وفى الوقت نفسه كتب فى الصحافة وعمل رئيسا لتحرير مجلة الرجاء.. وكتب فى مجلتى (العالمين) و(الحاوى) وعمل سكرتيرا لرابطة الأدب العربى (١٩٢٩م - ١٩٣٢م) ورئيسا لنادى التمثيل الحديث (١٩١٨م) وكانت له ندوة يؤمها أعلام الأدب فى مصر والبلاد العربية.

بدأ الكيلانى حياته الأدبية بأعمال ذات أهمية رفيعة أهمها:

١- رسالة الغفران للمعرى (١٩٢٣م) بمقدمة لمحمد فريد وجدى.. وأعيد طباعتها عام (١٩٢٥م) بمقدمة لطه حسين.

٢- مصارع الخلفاء (١٩٢٩م).

٣- مختار القصص من الشرق والغرب (١٩٢٩م)..

وهى ترجمة بتصرف عن كتابى (قصص السينما - بوكاتشو) إلى جانب قصص مصرية أخرى.

٤- صور جديدة من الأدب العربى (١٩٣١م).

٥- ديوان ابن الرومى: شرح وتعليق (١٩٣١م).
٦- ديوان ابن زيدون: بالاشتراك مع عبد الرحمن خليفة (١٩٣٢م).
٧- ملوك الطوائف للمستشرق (دوزى) (١٩٣٤م) ترجمة بتصرف.
٨- فن الكتابة أو كيف ندرس فن الإنشاء (١٩٣٤م).
٩- مجموعات قصصية للأطفال تبلغ مائتى قصة مؤلفة ومترجمة بدأها بقصة السندباد البحرى (١٩١٧م).

ونلاحظ أن الآراء اختلفت حول أعمال الكيلانى خاصة فى رسالة الغفران وابن زيدون.. وكانت موضع اهتمام عدد كبير من النقاد والكتاب ويمكن الرجوع فى ذلك إلى الكتاب الذى صدر فى ذكراه عام (١٩٦٢م) تحت عنوان «كامل كيلانى فى مرآة التاريخ والمذكور فى المصادر»

كان كامل كيلانى إذن عاشقا للتراث وكان اهتمامه بابن الرومى نتيجة دهشته من إغفال كتاب الأغانى له..

كما نظر إلى الأدب الأندلسى على أنه أحد روافد الأدب العربى فترجم عنه ونشر ديوان ابن زيدون.

كما درس جحا وتأثيره فى الآداب الأخرى.. إلى جانب عدد من البحوث اللغوية الأخرى.

ثم اتجه للكتابة للطفل.. وهو يقول فى ذلك:

(إن الذى دفعنى إلى اتخاذ الخطوات العملية نحو ذلك هو رؤية أولادى يحرمون من الكتاب العربى الذى يمتعهم ويثقفهم على عكس الأمر فى اللغات الأجنبية).

وبإخلاص وقـدرة وإبداع.. عكف الكيلانى على تربية الطفل ثقافيا ولفـت أنظار الكتاب والمبدعين بهذا الاتجاه حتى وصفه الشـاعر أحمد شـوقى بقوله: (الأسـتاذ الكيلانى كعقرب الثوانـى.. قصير.. ولكنه سريع الخطى منتج يأتى بدقائق الامور).

ومنهج الكيلانى فى الكتابة للطفل يقوم على أسس ثلاثة:

أولها: تشويق الطفل وتحبيبه فى الكتاب.

وثانيها: تجنيبه الخطأين: اللفظى والمعنوى.

وثالثها: التدرج به من مستوى إلى آخر.

وقـد بدأ الكيلانى رحلته بقصة (السـندباد البحرى) من ألف ليلة وليلة عام ١٩١٧م.. ونشـرها فى جريدة النسر المصرى.. ثم صدرت فى كتابه عام ١٩٢٢م.

ويذكـر الكيلانى فى حديث خاص(٥) (أن الكتب المقدمة لقرائها فى المدارس الابتدائيـة لا يعنى فيها العناية الكافيـة بترغيب الطفل فى الإقبـال عليها وكانت صورها مطموسـة بحيث لا تدل على أى شـىء إلا المقصود منها).

ومـن ثم أخذ الكيلانى علـى عاتقه العناية بهـذا المجال حتى إن المستشـرق الإيطـالى (كارلو نلينو) بعث إليه برسـالة جاء فيها (وإنى لأحبـذ أو فى تحبيذ تلك العنايـة التى تبذلها فى انتقـاء الموضوعات

---

(٥) كامل كيلانى فى مرآة التاريخ ص٣٤٥ - عن مجلة الرسالة الجديدة ١٩٥٧م.

أولا. والأساليب ثانيا. وأحجام الحروف ثالثا. وترتيب ذلك ترتيبا يتمشى.. بنجاح تام.. من الأطفال إلى الشباب وفوق تدرجهم فى أسنانهم ومداركهم).

وينتمى كامل كيلانى إلى ذلك الجيل من رواد نهضة مصر الأدبية والثقافية الذين ملأوا الساحة بعد ثورة ١٩١٩م.. وكانت المعرفة والهوية العربية عندهم يتمثلان فى الكفاح الوطنى والانتماء الحقيقى.

ويحكى الكيلانى كيف تحمس للكتابة للطفل بعد أن قضى سنوات طويلة فى النقد والتحقيق والترجمة.

فقد ألف أول قصة وهو تلميذ بالابتدائى عام ١٩٠٨م وذهب بها مع صديقه الخطاط الشهير (سيد إبراهيم) إلى أحد الناشرين.. فنهره لصغر سنه فأحدث ذلك تحديا داخله لبلوغ مراده.. ويوما شكى إلى صديقه جفاف القصص التى يدرسونها فى المدرسة فقال له صديقه سيد إبراهيم: إن لم تعجبك فألف خيرا منها.

وبدأ الكيلانى رحلته الطويلة مع الأطفال .. وكتب عددا كبيرا من القصص نشر منها فى حياته مائتى قصة فقط.. ونشر ابنه رشاد كيلانى بعد وفاته أكثر من خمسين قصة .. ومازال عدد كبير من أعماله لم تنشر.

ومن أهم منشوراته للأطفال: مجموعة قصص فكاهية (ثمانى قصص) – مجموعة ألف ليلة وليلة (اثنتا عشرة قصة) – مجموعة قصص هندية (سبع قصص) – مجموعة قصص من شكسبير (أربع قصص) – مجموعة

قصص وأساطير العالم (أربع قصص) - مجموعة قصص علمية (عشر قصص) - بالإضافة إلى عدد كبير من قصص الشرق والغرب الخيالية مثل: (حى بن يقظان - روبنسون كروزو - جليفر فى بلاد الأقزام والعمالقة).

وفى عام ١٩٢٠م أنشأ مكتبة كيلانى التى اهتمت بنشر مؤلفاته ومؤلفات أخرى فى مجالات التاريخ والأدب والفن.

وقد عنى كيلانى باللغة العربية الفصحى فى الكتابة للأطفال.. وكان حريصا على إضافة ألفاظ جديدة إلى قاموس الطفل وذلك بشرح بعض المفردات فى هوامش الصفحات.

وبالإضافة إلى قدرته على تبسيط الأعمال وتقديمها للطفل كان يكتب الشعر للكبار والصغار.. وكان يلقى شعره فى الأندية الأدبية لكنه لم ينشره فى صحيفة أو كتاب.. أما شعره للأطفال فكان غالبا ما يذيل به قصصه ويوضح فيه القيمة التى أرادها من القصة.. أو هو يلخص القصة فى هذه الأبيات.. ومن ذلك قوله:

أنا مازلت تلميذا صغيرا ... ولكنى على صغرى مجدُّ
أسير إلى العلا سيرا حثيثا ... وأنشط نحو غايتها وأغدوُ
وليس يضيرنى صغرى إذا لم ... يثبطنى عن العلياء جهدُ
وليس بنافعى طول وعرض ... إذا لم يغننى فهمٌ ورشدُ
فليس يُقاسُ إنسان بشبر ... ليُعرف قدرُه إن جدَّ جدُّ
ونبْتُ القمح مرتفع قليلاً ... ولكن هل له فى النفع حدُّ

هــو القــوت الذى نحيا جميعا بــه.. وهــو الــذى مــا منه بدُّ
وسوف أكــون مثل القمــح نفعــا وقدما أحــرز السَّبــقَ المجــدُّ

وفى مقطوعة أخرى بعنوان (ظلى) يقول:

أنــت يــا ظلـــى رفيــق عمــرى أنــت يــا ظلــى عجيــب الأمــرِ
كــم تطــول
ثم تبدو غاية فى القصرِ
أو تـــزول
ثم تعـــدو بعدها فى أثـــرى إن ظلــى مشــبهى كل الشـــبهْ
كلمــا اســتيقظتُ صبحا ينتبــهْ قافــزا خلِفىَ طــورا ســـاكتا
دائمــا لــم يــدر معنى للكـــلامْ حـــركاتى كلهـــا يــأتى بهــا
لا يبالــى ســـهلَها من صعبهـــا أنت قد حيرتنـــى فــى أمــرى
أنت خلفـــى حين أجرى تجرى أنت إن أبطـــئُ بـــطءَ الســير
أى نفـــع لك لا. لا لست أدرى

وقد كتــب عنه عدد كبير من النقاد والكتاب والشــعراء منهم: طه حســين – ومحمد فريد وجــدى – ومحمود أبو الوفا – وســيد قطب – ومحمد كامل حسين – ووديع فلسطين – وأحمد حسين – وأنور الجندى – ويوســف الشــارونى وطاهر أبو فاشــا – ومحمد الهراوى – وسلامة موسى وناصر الدين الأسد.. وآخرون.

وتنتهــى حياة كامل كيلانــى فى ٩ أكتوبر عــام ١٩٥٩م عن اثنين وســتين عاما وكتب يقول وهو على فراش المــرض: «إننى أريد أن أقرر حقيقة كبرى هى أننى لم أخذ مكانى قط».

وهذا بالرغم من أنه أدى دوره تماما..
وبعد وفاته أطلق اسمه على مدرسة ابتدائية بباب الخلق بالقاهرة..
كما تأسست جائزة باسمه فى المجلس الأعلى للثقافة.

* * *

## مراجع مختارة
## فى ثقافة الطفل


١- التربيـــة والتعليـــم فى مصر القديمة.. د. عبـــد العزيز صالح - الدار القومية ١٩٦٦م.

٢- الحكم والأمثال عند المصريـــين القدماء.. محرم كمال - المكتبة الثقافية ١٩٦٢م.

٣- إيسوب: ترجمة مختار الوكيل.. ألف كتاب ١٩٥٦م.

٤- الشـــعر الشـــعبى العربى.. د. حســـين نصار - المكتبة الثقافية ١٩٦٢م.

٥- التربية فى الإســـلام.. د. أحمد فـــؤاد الأهوانى - دار المعارف ١٩٦٨م.

٦- لعب العرب.. أحمد تيمور باشا - نهضة مصر ١٩٧٧م.

٧- كليلة ودمنة.. ابن المقفع - دار الشروق بيروت ١٩٧٣م.

٨- الحكايـــة على لســـان الحيوان.. د. ســـعد ظـــلام - دار التراث العربى ١٩٨٢م.

٩- حكايات لقمان.. تعريب عبده حســـن الزيات - لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٨م.

١٠- الطفل يستعد للقراءة.. د. محمد محمود رضوان - دار المعارف ١٩٧٣م.

١١- رسائل الآباء إلى الأبناء.. ترجمة لطفى الخورى - النهضة بغداد ١٩٦٢م.
١٢- الإذاعة والطفل العربى (بحث) منى الحديدى - المجلس الأعلى للطفولة ١٩٨٨م.
١٣- التليفزيون والطفل العربى (بحث) إبراهيم يوسف - المجلس الأعلى للطفولة ١٩٨٨م.
١٤- الطفل العربى والمسرح.. شوقى خميس - المجلس الأعلى للطفولة ١٩٨٨م.
١٥- سيكولوجية اللعب.. ترجمة حسن عيسى - الكويت.
١٦- أيها الولد المحب.. الأمام الغزالى - دار الشروق ١٩٧٥م.
١٧- أطفالنا فى عيون الشعراء.. أحمد سويلم - دار المعارف ١٩٨٢م.
١٨- التربية الثقافية للطفل العربى.. أحمد سويلم - مركز الكتاب للنشر ١٩٩٠م.
١٩- الفكر الإسلامى وثقافة الطفل العربى.. أحمد سويلم ١٩٩٧م.
٢٠- الطفل العربى ووسائل الإعلام وأجهزة الثقافة.. د. عاطف العبد.
المجلس العربى للطفولة ١٩٨٨م.
٢١- بحوث فى حاجات الطفولة العربية - المجلس العربى للطفولة ١٩٩٦م.
٢٢- التنشئة الأسرية والأبناء الصغار.. محى الدين أحمد حسين - هيئة الكتاب ١٩٦٧م.

٢٣- ثقافة الطفل بين الواقـع والطموحات.. عفاف أحمد عويس - مكتبة الزهراء ١٩٩٢م.
٢٤- أدب الأطفـال.. هانى نعمان الهيتى - وزارة الإعلام - العراق ١٩٧٧م.
٢٥- أدب الأطفال.. على الحديدى - الأنجلو ١٩٨٠م.
٢٦- أدب الأطفـال.. د. محمـود الضبع - الـدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٩م.
٢٧- أدب الأطفـال.. د. كمـال الدين حسـين - دار العالم العربى ٢٠٠٩م.
٢٨- أدب الأطفال.. رشدى طعيمة - دار الفكر العربى ١٩٩٩م.
٢٩- أدب الأطفال.. د. إسماعيل عبد الفتاح - الدار العربية للكتاب ٢٠٠٠م.
٣٠- أدب الأطفـال.. محمـد علـى الهرفى - دار المعـالم الثقافية ١٩٩٦م.
٣١- أدب الأطفال العربى.. حسن شحاته - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩١م.
٣٢- أدب الطفولة.. أحمد زلط - دار المعارف ١٩٩٥م.
٣٣- ثقافة الطفل.. أحمد مكى - مكتبة الرشيد ٢٠٠٨م.
٣٤- معجـم شـعراء الطفولة.. أحمـد فضل شـبلول - دار المعراج الدولية ١٩٩٨م.

٣٥- هؤلاء كتبوا للأطفال.. محمود قاسم - المركز القومى للأطفال ١٩٩٩م.
٣٦- الطفل وعالمه المسرحى.. د. عبد الرءوف أبو السعد - دار المعارف ١٩٩٨م.
٣٧- النص الأدبى للأطفال.. د. مسعد أبو الرضا - منشأة المعارف ١٩٩٨م.
٣٨- دراسات فى أدب الأطفال.. اتحاد كتاب مصر ٢٠٠١م.
٣٩- مجلة أدب الأطفال - بحوث ودراسات - مركز توثيق وبحوث أدب الأطفال.
٤٠- أعداد مجلة ثقافة الطفل .. المركز القومى للأطفال.

* * *

# فهرس

الموضوع — الصفحة


المقدمة ..... ٧
هل كان للأطفال أدبهم الخاص في التراث العربي ..... ١٠
الثقافة والطفل ..... ١٩
هؤلاء الشعراء كتبوا للأطفال ..... ٢٥
شوقي وحكاياته الشعرية ..... ٤٨
شعر الأطفال بين الفصحى والعامية ..... ٦٠
أغنية الطفل بين المحلية والعالمية رؤية للمستقبل ..... ٧٥
روايات الناشئة: الواقع والمأمول ..... ٨٧
مغامرة بطل هزم العجز: رواية للناشئة ..... ١٠٢
السحر والخوارق بين هاري بوتر وألف ليلة وليلة ..... ١١٠
السير الشعبية وأدب الطفل ..... ١١٥
البعد الإسلامي في ثقافة الطفل العربي ..... ١٣٣
رسوم الأطفال ترف أم ضرورة ..... ١٥٥
المسرح الشعري للأطفال بين الأصالة والمعاصرة ..... ١٦٠
إحياء قدرة الوالدين على الحكي والحوار مع الأطفال ..... ١٧٣
أضواء على رواد أدب الأطفال ..... ١٨٧
أ - محمد عثمان جلال ..... ١٨٨

ب–محمدالهراوى.....١٩٦
ج–كامل كيلانى.....٢٠٣
مراجع مختارة فى ثقافة لطفل.....٢١١

يصدر قريبا

■ نهر النيل شريان الخير

بسام الشماع

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.
- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات.

بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل – ماسبيرو – القاهرة

طبع بمطابع دار المعارف